نساء البنّ

جورجي أمَادو

Telegram:@mbooks90

"ساحرة... تحفة في الفن السردي"
جوزيه ساراماغو

من الأدب البرازيلي

رواية

ترجمة
مالك سلمان

دار الساقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خورخي أمادو

نساء البنّ

ساحرة... تحفة في الفن السردي

رواية

Telegram:@mbooks90

دار الساقي للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقديم شيءٌ من البراءة

بقلم خوسيه ساراماغو

لسنوات عدة، سعى جورجي أمادو إلى أن يكون صوتَ البرازيل وشعورَها وفرحتَها وقد نجح في ذلك أيما نجاح. فالقليلُ من الكتّاب ينجحون، كما نجح أمادو، في أن يصيروا مرآة وصورة شعب بأكمله. إذ تعرّف الكثير من القرّاء الأجانب على البرازيل بقراءتهم كتب أمادو. كما أصابت الدهشة كثيرين من هؤلاء لدى اكتشافهم في كتب أمادو تلك الملامح الشفافة التي تدلّل على التنوع العرقي والثقافي المعقد الذي يميّز المجتمع البرازيلي. فقد كانت تلك الصورة العامة والنمطية للبرازيل، المختزلة في البيض والسود والخلاسيين والهنود، تتعرّض لتقويم متسارع وغير متكافئ نتيجة تلك الديناميّات التنموية في قطاعات البلد المتنوعة وأنشطتها الاجتماعية، كما لاقت شجباً رزيناً وممتعاً في أعمال أمادو. لم نكن غافلين عن الهجرة البرتغالية التاريخية ولا عن الهجرتين الألمانية أو الإيطالية، اللتين حصلتا على مستوىً مختلف وفي فترات مختلفة، لكن أمادو هو الذي جعلنا نلمس مقدار جهلنا بها. فالمروحة الإثنية التي لطّفَت البرازيل كانت أكثرَ غنىً وتنوّعاً من التصوّرات الأوروبية الملوّثة بالعادات الكولونيالية الانتقائية؛ في نهاية المطاف، كان ذلك الطيف يشتمل على الأعداد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضخمة من الأتراك والسوريين واللبنانيين والآخرين الذين غادروا بلدانَهم، منذ القرن التاسع عشر وخلال العشرين وصولاً إلى يومنا، واستسلموا روحاً وجسداً لمغريات الفردوس البرازيلي ومخاطره، بالإضافة إلى احتمال أن يفتحَ لهم أمادو أبوابَ كتبه على مصاريعها.

سآخذ مثالاً على ما قلتُه هذا الكتاب الصغير الجميل الذي يتمتع عنوانُه *The Discovery of America by the Turks*1 بالقدرة على إثارة أكثر القرّاء فتوراً. إذ يقدّم الكتاب حكاية رجلين تركيين – ليسا تركيين في الحقيقة، كما يقول أمادو، بل عربيين – هما رضوان مراد وجميل بشارة يقرران الهجرة إلى أميركا سعياً خلف الثروة والنساء. ولكن سرعان ما تتفرّع القصة التي تشي بالترابط إلى قصص أخرى تدور حول عشرات الشخصيات الأخرى من الرجال العنيفين إلى القوّادين والكحوليين والنساء المتعطشات إلى الجنس كما إلى الهناء العائلي، وذلك كله في مقاطعة إيتابونا في باهيّا، مسقط رأس أمادو (مجرد مصادفة؟). ولا تقلّ هذه الحكاية التشرّدية البرازيلية عنفاً عن حكايات التشرد الإيبيرية. إذ نجد أنفسَنا في عالم القتلة المأجورين، ومزارع الكاكاو التي كانت مناجمَ ذهب في ما مضى، والعراك بالسكاكين، والضباط الذين يتمتعون بسلطات خارجة عن القانون لا يمكن لأحد أن يفهم مصدرَها، والمباغي التي تشهد النزاعات على العاهرات كأنهنّ زوجات فاضلات عفيفات. كما أن هؤلاء الأشخاص مهووسون بالزنى وتكديس الأموال والعشاق وحفلات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجون والشراب. ولذلك هم يشكلون حطباً لنارِ جهنّمَ واللعنة الأبدية. مع ذلك إن شيئاً من البراءة (التي تُقلِق القارئ) يرشح من هذه القصة المضطربة المسكونة بالأشرار، شيئاً يتخلّق طبيعياً كالريح التي تهبّ أو الماء الذي يجري، وعفوياً كالعشب الذي يطلع بعد عاصفة مطرية. إن نساء البنّ، التي تشكل أعجوبة من أعاجيب الفنّ السردي رغم إيجازها المنهجي وبساطتها الظاهرة، جديرة بمكان يليق بها بين الروايات العظيمة مثل *Jubiabá* [جوبيابا] و*Tent of Miracles* [خيمة المعجزات] و*The Violent Land* [الأرض العنيفة]. يُقال أن في مقدورك تمييز العملاق من إصبعه. ها هي إذاً إصبع العملاق، إصبع جورجي أمادو.

تصدر الطبعة العربية بعنوان نساء البنّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمهيد

كنتُ في منزلي في ريو فيرميلو في باهيّا في نهاية مايو 1991 عندما تلقيت اتصالاً هاتفياً من روما. كان مديرُ إحدى مؤسسات العلاقات العامة يقترح عليّ المشاركة في أحد المشاريع التي يجري التحضير لها.

كان أحد المسؤولين الإيطاليين النافذين قد قرّر إحياء الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أميركا بنشر كتاب مكوّن من ثلاث قصص لكتاب من القارة الأميركية: واحدة بالإنكليزية للأميركي نورمان ميلر، وأخرى بالإسبانية للمكسيكي كارلوس فوينتِس، والثالثة بالبرتغالية لي. وقد اقتضى المشروع نشرَ الكتاب بأربع لغات هي: الإيطالية والإنكليزية والإسبانية والبرتغالية، وتوزيع ثلاثمئة ألف نسخة مجانية لجميع المسافرين على مختلف الرحلات الجوية بين إيطاليا والأمريكات الثلاث أبريل وسبتمبر 1992، سنة الذكرى المئوية الخامسة.

تعهّدت الوكالة ضمانَ حقوق النصوص للكتاب الثلاثة لثلاث سنوات باللغات الأربع. سألوني هل لدي قصة ما كنت قد كتبتُها في وقت سابق تناسب الطول المطلوب للكتاب (حدّدوا الرقم بالكيلوبايت أو ما شابه، وبما أنني لا أعرف شيئاً عن الحواسيب، اكتشفتُ أن المطلوب نحو سبعين صفحة)، وإن لم تكن القصة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متوفرة، هل أوافق على كتابتها. اقترحوا مبلغاً معيناً لقاء حقوق التأليف بدا لي صغيراً فترددتُ واتفقنا على مناقشة الأمر لاحقاً في يوليو في باريس التي سأسافر إليها بعد شهر من ذلك التاريخ.

بدأت الفكرة تهيمن عليّ وأخذت أفكر في الموضوع جدّياً. تذكرتُ أنني عندما كنت أعمل على رواية *Showdown* [المواجهة] بدأتُ التفكير حول مغامرة يقوم بها العربي فضّول أو بليّة يتعرّض لها، لكنني لم أكتبها. لم أعتقد أنها ضرورية لبنية الرواية. بدت فكرة مثيرة وأخذت أفكر في كتابتها.

انتظرتُ في باريس لكن الإيطاليين لم يتواصلوا معي فقلتُ لزِيليا: "لقد اختفى رجال المافيا. هذا أفضل، فالآن يمكنني استئناف العمل بهدوء على *Home is the Sailor* [البحّار العائد]". كنت قد بدأت هذه الرواية في باهيّا. لكن أولئك الشباب اتصلوا بي ثانية وأتوا إلى باريس ووافقوا على المبلغ الذي حدَّدتُه ثم وقعنا العقد. أجّلتُ كتابة الرواية التي كنت أعمل عليها وكتبتُ هذه الرواية القصيرة التي ستقرؤونها. ففي نوفمبر من تلك السنة، قدّمتُ المخطوطة في روما وحصلتُ على الشيك وبدأت تبذير الأجر الذي حصلت عليه لقاء كتابتها.

في الوقتِ نفسه، بدأتُ بيع حقوق ترجمة القصة إلى لغات لم تكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من بين التي نصَّ عليها العقدُ الذي وقعتُه مع الوكالة. وقعتُ عقوداً للترجمة إلى الفرنسية والألمانية والروسية والتركية. ظهرت النسخة الفرنسية في سبتمبر من 1992 في ترجمة رائعة لجان أوريكيوني. وقد لاقى هذا الكتاب الصغير حول الأتراك اهتماماً كبيراً من النقاد الفرنسيين وقد بيعت منه، ولا تزال، نسخٌ كثيرة. كما أنه سيُطبع في نسخة جيب في السنة المقبلة. ويجب أن أشير هنا إلى جمال النسخة التركية التي ظهرت مطلع 1993. بالنسبة إلى الترجمة، أرى أنها رائعة. فالترجمات الرائعة هي تلك التي تتم في لغات لا يفهمها المؤلف.

كان من المتوقع ظهور نُسَخ القصص الثلاث بالإيطالية والبرتغالية والإنكليزية والإسبانية في مجلد واحد في أبريل 1992 لكنها لم تُطبَع. إذ لم تشكل جزءاً من احتفاليات المئوية الخامسة التي تحوّلت، كما كان متوقعاً، إلى نقاش حاد يتمحور حول أسئلة من قبيل: ملحمة أو إبادة جماعية؟ اكتشاف أو غزو؟ كان الوقت يمر من دون أن أتلقى أي أخبار من الوكالة.

لم تأتِني أي أخبار عن الكتاب لكن شكوكي تعاظمت عندما قرأتُ في الصحف حول "عملية الأيدي النظيفة" التي كشفت عن الفساد المستشري في الحياة السياسية الإيطالية - الذي لا يضاهيه سوى الفساد المتفشي في البرازيل بأنواعه المختلفة - والتي طالت تحقيقاتُها إحدى أهم المؤسسات الحكومية التي سيق مديروها إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحاكمة بالإضافة إلى رئيسها الذي انتحر في السجن. أخذتُ أحكّ رأسي وأطلعتُ زيليا على التقرير قائلاً: "لا أعتقد أن تلك النسخ التي خططوا لطباعتها ستصل إلى أولئك المسافرين على الخطوط الجوية. لقد انتهى المشروع".

تماماً. فقد كتبت لي الوكالة التي وقعتُ معها العقد أنهم تخلّوا عن المشروع ومنحوني حقوقَ اللغات الأربع التي كانوا قد اختاروها للكتاب. اتصلت بكارلوس فوينتِس لأبلغه بالنبأ فقال لي إنه سبق أن باع حقوق النشر بالإسبانية لناشر في مدريد. كما أبلغتُ سيرجيو ماتشادو في البرازيل: "لقد أطلق سراح الأتراك. يمكنك أن تنشر الكتاب في الوقت الذي تريده".

إذا لاحظ قارئ هذه الرواية القصيرة تشابهاً بين العربي جميل بشارة الذي يظهر في هذه القصّة وفضّول عبد الله الذي يظهر في رواية سابقة، أو بين رضوان مراد وفؤاد كرم، أو بين قرية إيتاغواسا والمكان الذي يدعى توكايا غراندي، عليه ألا يفهمَ ذلك على أنه نوعٌ من المصادفة المحض. فهذه التقاطعات دليلٌ آخر على أنني روائيٌّ محدودٌ يتكئ على التكرار، تبعاً للرأي السائد اليوم بين جموع النقاد الوطنيين المحترمين، رأيٍ آتي على ذكره وتكراره كتابياً هنا لتأكيده.

في ما عدا ذلك كل شيء على ما يرام. أرجو أن يستمدَّ القرّاءُ بعضَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتعة من الأحداث التي تقود إلى مراسيم زواج آدما التي تمت في مدينة إيتابونا مع بداية نشوء ثقافة الكاكاو في بدايات القرن عندما اكتشف الأتراك أميركا أخيراً وهبطوا في البرازيل وأصبحوا برازيليين حقيقيين.

جورجي أمادو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى زيليا

في بهاء هذا الخريف وحزنه

إلى أنطونيو ألسادا بابتيستا ونونو ليما دي كارفالو

اللذين اكتشفا البرازيل وغزيا الهمج الوثنيين

بسلاحَي التفاني والصداقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد حان الوقتُ لنكتشفَ أميركا - قال النبيّ طويل - فقد تأخرنا قليلاً وبدأنا نخسر المال.

- من الأرشيف السرّي، من أحد مجلّدات **الأنبياء الصغار**

وحيٌ إلهيٌّ، رائعة من روائع الخالق، هبة عظيمة، امرأة تبعث على البهجة، فرج لذيذ يليق بملاك.

- **سفر التكوين**، فصل (حول الكمال)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نساء البنّ

أو

كيف تلقّى العربي جميل بشارة،

مروّض الغابات،

في زيارة له إلى مدينة إيتابونا،

بحثاً عن المتعة الجسدية،

عرضاً بالثروة والزواج،

أو

مراسم زواج آدما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

إذا صدّقنا المؤرّخين الإيبيريين، سواء كانوا إسبانيين أو برتغاليين، اكتشف الأتراكُ الأمريكات الثلاث، وهم ليسوا أتراكاً على الإطلاق بل عرباً من أصول نبيلة، بعد تأجيل طويل وفي وقت حديث نسبياً أثناء القرن التاسع عشر وليس قبل ذلك.

علينا أن نتذكر أن المؤرّخين من شبه الجزيرة لا يتمتعون بالمصداقية الكافية لأنهم معنيّون بالموضوع. فكل ما كان يهمّهم هو الإطناب على أفعال الإسبان والبرتغاليين وقاماتهم من أمثال كريستوفر كولومبوس وأميريجو فيسبوتشي وفاسكو دا غاما وفيرديناند ماجلّان وشخصياتهم العظيمة الأخرى؛ شخصيات قشتالية ولوسيتانية من الطراز الرفيع تنحدر من أنساب مسيحية نبيلة وتجري في عروقها دماء نقيّة؛ أبطالٌ بواسل لا يهابون الموت. من الضروري لبدء هذا النقاش أن نشيرَ إلى أن الدعائيين الإيطاليين، المسلّحين بشهادات الميلاد والدلائل والبيّنات، قد تغنّوا - بأساليبهم الإيطالية - بأمجاد شبه الجزيرة الأخرى التي كانت مهداً لكولومبوس وفيسبوتشي: الأول بصفته المكتشف والثاني الذي أفاد من هذا "الاكتشاف" وسمّى الأراضي المجهولة باسمه. أما الإسبان، فيلجؤون إلى أوراق أخرى وشهادات أخرى، فما هو السبيل لمعرفة الحقيقة؟ فقد تم تزوير الوثائق وشراء الشهادات بالأموال. فإذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الإسبان يستحقون شيئاً من التقدير، يستحق الإيطاليون تقديراً أقلّ كما يظهر من عمليات الخداع والاحتيال التي قام بها فيسبوتشي. ثم ما الذي يمكن أن يقولوه عن الفايكينغز؟ إن عملية "الاكتشاف" هذه خليط متنوع.

على متن السفينة التي تحمل المهاجرين من الشرق الأوسط، من جبال سوريا ولبنان إلى غابات البرازيل العذراء، عبر ممر صعب تتقاذفه العواصف، كشفَ مُراد - الهارب من العدالة بسبب الاحتيال والمقامرة، والباحث الذي يتمتع بسرد نثريّ ساحر - لرفيقه السوري جميل بشارة أنه خلال الليالي الطويلة التي قضاها في قراءة الكتب القديمة البالية حول رحلة كولومبوس الأولى قد اكتشف في زحمة البحّارة الذين يشكلون طاقمَ أحد المراكب الشراعية في تلك الرحلة الاحتفالية اسمَ شخص يُدعى ألونسو بشارة. وبشارة المغربي، الذي التحق بالأسطول ربما على يد كتيبة تجنيد، هو واحدٌ من أولئك الأبطال الكثُر الذين يطويهم النسيان عندما يحين وقتُ الاحتفالات والمكافآت، عندما يتوّجُ المجدُ الأدميرالَ ويغطي الخراءُ أفرادَ الطاقم الآخرين (رغم ثقافته الغنية، كان رضوان مراد يتمتع بلغة بذيئة).

هل هذه هي الحقيقة، أم هي مجرد كومة من البضائع المهرّبة؟ كان رضوان مراد شخصاً مبدعاً يتمتع بخيال غنيّ لكنه لم يكن يملك أي وازع أخلاقي. فبعد سنوات من إقامته في الأراضي العذراء اخترع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"خدعة إيتابونا" باستخدام ثلاث أوراق متغيرة في لعبة البوكر بهدف الخداع والتمويه، وسرعان ما انتشرت على نطاق واسع في منطقة باهيّا الجنوبية. حقيقة أم خداع؟ لا أهمية لذلك لأن الأحداث المرويّة هنا تتمحور حول ما حدث مع جميل لا مع سلفه، سواء كان المغربي بشارة أو الإسباني ألونسو المشكوك في وجوده. فمن الأفضل لنا التركيز على الحقائق الراسخة التي لا يداخلها الشك رغم أن القصة الحقيقية تنطوي على عناصرَ عجائبية خارقة.

تأتي الإشارة إلى اكتشاف أميركا من وطأة الاحتفالات الواسعة الحالية، إذ ليس في مقدور شخص مسالم أن يأتي بأي حركة أو يرخي فصّاً خافتاً من دون أن تعصف برأسه "المئوية الخامسة" لـ"الاكتشاف" كما يقول أولئك الذين ينحدرون من سلالة الرجال البواسل الذين اكتشفوا الجانبَ الآخر من البحر، أو "الغزو" كما يقول المنحدرون من سلالة الهنود الذين تعرّضوا للإبادة، أو للسود المُستعبَدين للثقافات التي أتى عليها المرتزقة وأعضاءُ البعثات التبشيرية الذين يحملون صليبَ المسيح وجرنَ المعمودية.

يستعر الجدال على هيئة نقاش عنيف لا يعرف الحلولَ الوسطية ولا يَشي بأي اتفاق ممكن، إذ تهيمن الطائفية على كلا الطرفين، ويمكن لأيّ كان الدخول في هذه المعمعة ليخرج منها ببعض الفتات. ولن أكون هذا الشخص الذي يفعل ذلك. لا، ليس أنا، أنا البرازيلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي يسري فيَّ دمٌ خليطٌ، ثمرة "الاكتشاف" و"الغزو"، ثمرة الخليط. فأنا أسرد هنا ما حدث لجميل بشارة ورضوان مراد والعرب الآخرين الذين اكتشفوا البرازيل في بداية القرن. فقد كان أوّلُ الواصلين من الشرق الأوسط يحملون أوراقاً صادرة عن الإمبراطورية العثمانية، ما يفسّر تسميتهم بالأتراك حتى يومنا، إذ يشكلون تلك الأمة التركية الرائعة التي تندمج مع الأمم الأخرى في تشكيل الأمة البرازيلية المتجدّدة.

رسَت السفينة التي حملت جميل بشارة الشاب ورضوان مراد الحكيم في "خليج القدّيسين" في أكتوبر 1903، أي بعد 411 سنة من ملحمة قوارب كولومبوس الشراعية. لكن ذلك لم يَنفِ عن هبوطهما صفة الاكتشاف أو الغزو لأن الأراضي الواقعة في جنوب ولاية باهيّا، حيث تمركزا وهيّآ نفسيهما للمعركة، كانت مغطاةً بالغابات العذراء آنذاك. كانت قد بدأت للتو زراعةُ المحاصيل وإقامة المنازل. وكان الضباط ومرتزقتهم يقتلون بعضهم بعضاً الهيمنة على الأراضي التي تشكلِ أكثر تربة خصبة لزراعة الكاكاو في العالم. كانوا يتقاطرون من مناطقَ مختلفة: من الأقاليم الداخلية، ومن ولاية سيرجيبي، إضافة إلى اليهود والأتراك - كانوا يسمون أولئك العرب من السوريين واللبنانيين أتراكاً - وكانوا كلهم برازيليين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

استمرت الصداقة التي نشأت بين جميل بشارة ورضوان مراد على متن السفينة ثم تعززت عندما قرّر المهاجران، من دون أي نقاش سابق، اختبار حياتهما في أراضي باهيّا الجنوبية التي تشكل فردوسَ الكاكاو الجديد.

أُعجبَ جميل خلال هذه الرحلة البائسة بحكمة مراد ومهاراته. كما غمرت الحماسة هذا الصبي اليافعِ وهو يشاهد رفيقَ سفره يتغلب على دوار البحر ويبدّد ذكاءَه وخبثه على طاولة البوكر - التي لم تكن سوى لوح خشبي يعلو ويهبط مع حركة السفينة - وطاولة النرد، أو وهو يستمع له يردّد أشعار الحب الشهوانية حول المحظيّات والنبيذ، التي كان يترنّم بها بالعربية أو الفارسية في الليالي المقمرة تحت ستائر النجوم الممتدّة فوق البحر. لم يكن جميل والمستمعون الآخرون - مجموعة من الرعاع والغوغاء - يعرفون الفارسية، كما لم يكن اسمُ عمر الخيام العريق يعني شيئاً لهم، لكن رنينَ الرباعيات ولحنَها خفّفا قسوة الرحلة وعزّزا مكانة رضوان مراد بين المسافرين. فلدى نزوله من السفينة، كان محاطاً بمظاهر الاحترام والتقدير وكانت جيوبُه مليئة بالنقودِ التي جناها بموهبته وخفة يده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فردوس الكاكاو! كان الناس يهرعون إلى هناك من المناطق الداخلية والولايات الشمالية الشرقية، فقد استفاقت سيرجيبي، أقربُ هذه الولايات وأفقرها، لتجد نفسَها خالية من الرجال الذين هجروا زوجاتهم وخطيباتهم وحبيباتهم. وكذلك العرب أيضاً، حالما ينزلون من السفينة التابعة لـ"شركة باهيّا للشحن البحري" في ميناء إليوس كانوا يهرعون إلى الغابات بحثاً عن الثروة السهلة المضمونة. الثروة السهلة؟ من الأفضل القول: الثروة المحتملة المحفوفة بالمخاطر. لو أن الرجل المختارَ لم يمُت شنقاً في مواجهته الأولى مع قطاع الطرق، بل ثابرَ وواصل طريقه، لتطلّبت مواجهة الموت قدراً كبيراً من الشجاعة والمشقة.

Telegram:@mbooks90

كان جميل متأهباً للعمل وشجاعاً بالوراثة. فقد ورثَ هذا المشرقيُّ المولود في أراضي الفرات القبَلية بسالة القبائل التي تحاربت بينها من أجل متعة الحرب ومتعة الحياة. ويمكننا أن نقول شيئاً مشابهاً عن رضوان مراد رغم الشائعات. فحتى لو تجاهلنا شجاعته الأخلاقية التي كانت موضعَ شك، فكيف يمكن لأحد أن ينكرَ الجرأة والشجاعة اللتين يتمتع بهما رجلٌ جابَه رجالاً أقوياءَ مرات عدة في أوكار القمار، أعزلَ في أرض لا يخرج فيها أحدٌ من بيته من دون بندقية أو مسدس؟ كان هادئاً وبارداً حتى عندما تنذر الأمور بالشكوك والمخاطر المقبلة (إذ لم يكن بعض المشاكسين يتقبّلون دائماً "خدعة إيتابونا" بالضحك والتصفيق).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة إلى الشائعات التي كانت تروّج أنه يمقت العمل كثيراً وينظر إليه بنوع من الرعب المقدّس، كما هي حالُ بعض المتعلّمين، هذا ضربٌ من الظلم ينطوي على نيات سيئة. فإن كان البروفيسور - هذا ما كان البعضُ يلقّبه به تعبيراً عن الاحترام - يتهرّب في صباه من الواجبات التي لا تقع في مجال اهتمامه الفكري، فلم يكن هناك شخصٌ يفوقه اجتهاداً والتزاماً على طاولة البوكر أو في أي لعبة أخرى تعتمد على الحظ. حظ؟ لم تكن هناك لعبة تعتمد على الحظ بالنسبة إلى رضوان مراد. فقد كان متحدّثاً فذاً وكان يكتب في أوقات فراغه مقالات صحافية رائعة بالبرتغالية بنبرة شرقية ساحرة حول مشكلات منطقة الكاكاو. ويرجع السبب الوحيد في قلّة هذه المقالات إلى ندرة الصحف وخوفه من تعيينه مديراً لإحدى المدارس أو في إحدى الوظائف الحكومية. إذ كان متمسكاً بحريّته الكاملة ليملأ وقتَه بأشياء يحبّها، ولم يكن يرغب في الخضوع لإيقاع الروتين القاتل.

رغم اختلافهما عن بعضهما بعضاً جذرياً، فإن صداقة متينة توطّدَت بين التركيَّين، السوري واللبناني. كانا أشبه بأخوَين رغم العداوة الموجودة بين بلديهما. فقد وُلدَ جميل لأبوين سوريين، أما مراد، فكان لبنانيَّ الولادة والهوية. كما أنهما لم يكونا من دين واحد، إذ كان جميل يُقسم بالله ومحمّد، أما الشكاك رضوان - الذي وُلدَ لعائلة مسيحية من الطائفة المارونية -، فزرعت فيه تجاربُ الحياة وشرورُ الكتب نزعة مادية (منافية لمفاهيم الأخلاق التقليدية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السائدة). ولم يكن الفرق في السنّ عائقاً أمام صداقتهما. أثناء هذا كله لم يكن جميل، ذلك الفحل الشهواني الذي تتنافس عليه نساء الليل، قد احتفل بعيد ميلاده الثلاثين. أما رضوان، فكان قد تجاوز الأربعين واكتسب جاذبية في عقده الخامس تأسر ألبابَ النساء كباراً وصغاراً.

إضافة إلى ذلك كله لم تكن لتفرّقَ بين الاثنين تلك المسافة التي تفصل إيتاغواسو، القرية الصغيرة الضائعة في الغابات حيث يعمل جميل، عن إيتابونا، المدينة المزدهرة المتنامية التي كان رضوان يعيش ويعمل فيها. إذ كان جميل يأتي إلى إيتابونا كل شهر للتزوّد بالمؤن والبضائع اللازمة لتجارته الصغيرة الوحيدة في إيتاغواسو حيث كان يبيع مجموعة متنوعة من اللوازم اليومية التي تفي بحاجات سكان القرية القلائل وذلك الفيض من العابرين من الرعاة والمأجورين والقتلة والعاهرات اللواتي يأتينَ ويذهبنَ عبر معابر الكاكاو. كما كان يأتي في بعض الأحيان للتخفيف من سأمه والتمتع بالحضارة - "هل أتيتَ لتغتسلَ بماء الحضارة يا صديقي؟" كان رضوان يبادره قائلاً كلما فوجئ به في إيتابونا - والتسلية والترويح عن نفسه (لا أحد مصنوع من الحديد) في الكباريه أو البارات أو أحد بيوت الدعارة. كان ذلك عيداً بالنسبة إليه. هكذا، لم يكن جميل ورضوان الفيلسوف يفترقان؛ كانا يثرثران ويهذران ويضحكان ويرقصان البولكا والمازوركا. وفي تلك الليالي الصاخبة في شوارع إيتابونا، كان رضوان يردّد وهو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمسك بيد باولا الحولاء أو أي امرأة أخرى قصائدَ الحبّ العربية التي ينسكب فيها النبيذ وترقص الجواري. وكان جميل يستمع وهو يمسك بيد غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية ويبكي من فرط التأثر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

جلس جميل بشارة ليستريح من عناء يوم طويل مليء بالعمل - كم أنا متعب! - على الرصيف أمام "مخزن إيتاغواسو" ومنزله الواقع خلفه، بعد مضي بضع سنوات على حفلة الخطوبة، وضحك بصوت عالٍ عندما تذكر مشكلات الصفقة المتعلقة بدكان الأقمشة الصغير والخطر الذي عرّضَ نفسَه له عندما عرض عليه إبراهيم جافِت، بناءً على نصيحة رضوان مراد، الشراكة في "مخزن الصفقات" مقابل تزويجه ابنته الكبرى آدما. كانت الفتيات الثلاث الأصغر متزوجات، أما هي، فبقيت عفيفة سليمة تعاني من المرارة والمزاج النكد. لم تكن مجرّد عذراء؛ كانت عانساً تقدّم بها العمر.

واجهَ جميل بسببها (وبسبب الدكان الذي كان صفقة رائعة!) خطرَ الرحيل عن إيتاغواسو والتخلي عن مخزنه الجديد - كانت سمعتُه تشكل ميزته الوحيدة - الذي كان يبيع فيه الطحين والحبوب ومشروب الكاشاكا والصنادل. وفي ما بعد، أخذ يبيع البضائع بالجملة والمفرّق ويزوّد مزارعَ المنطقة وسكان القرية بأشياء متنوعة من لحم البقر المجفف إلى سراويل الجينز، ومن صنادل الجلد الخام إلى القبّعات والجزم النسائية، إضافة إلى لفافات القماش والخيوط القطنية والإبر وزيوت الشعر وصور القديسين الكاثوليك وصانعي المعجزات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ورغم أن جميل كان مسلماً تقياً ينتمي إلى الطائفة الشيعية، فإنه لم يكن يحمل أي تحيّزات دينية عندما يتعلق الأمر بالمال. فالله على كل شيء قدير، ولا حدود لحكمته، ويعلم ما في الصدور، ويعرف ويزِن كل مثقال ذرة.

كان أفراد عائلة بشارة الكبيرة والمغامِرة مبعثرين في مدن المتوسط الساحلية والمناطق المتاخمة له. إذ كانوا يقيمون في إسبانيا، كما أشرنا سابقاً، وفي كريت ومصر والمغرب، ويتنقلون من ليبيا إلى إيطاليا وصولاً إلى السنغال. وقد كان ميشيل بشارة يقود عصابة من قطاع الطرق في مدينة مرسيليا الفرنسية وانتهى به الأمر إلى المقصلة. أما جميل، فهو أول من اكتشف أميركا في طريقه إلى البرازيل. إذ يظهر اسمه في سجلات العائلة بعد اسم ميشيل الذي كان قاطعَ طريق في المدينة الساحلية.

في اليوم الذي أبحرَ فيه، ذهب ليركعَ أمام المُلّا طاهر بشارة، عمّ أبيه الحكيم القدّيس الذي كان من أتباع النبيّ الأخيار وكان يتكلم مع الله في صلواته. كان من المتوقع أن يحصل على مرتبة آية الله والتعويضات المستحقة لهذه المرتبة. ومنه، حصل جميل على رسالة توصية موجهة إلى ابن البلد أنور، شيخ قبيلة مارون الذي يتمتع بعلاقات جيدة في مزارع الكاكاو في ولاية باهيّا. رسالة إلى الأثرياء وصلوات إلى الله الذي لن يتخلّى عن عبده الهائم على وجهه في أراضي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أميركا الشاسعة. وسوف يحرص المُلّا على بقاء اسم جميل في فم وأذني الله ونبيّه محمد.

كانت الرسالة مفيدة جداً إذ حددت قرارَ جميل في اختيار منطقة باهيّا الجنوبية. كما أن توصيات الشيخ طاهر قد أنقذت البرازيلي الجديد من الإحساس بالضياع والوحدة في بلده الجديد الذي عليه أن يسبرَ أغوارَه ويكتشف معالمَه. ومن واجب الله أن يُعينَ أبناءَه في اللحظات الحرجة ويحميهم من إغواءات الشيطان، إبليس الماكر، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ويمنعهم من ارتكاب المعاصي التي تؤدي إلى التهلكة وعذابات الجحيم الأبدي.

رَعَت عينُ الله ابنَه التائه في كل خطوة خطاها إلى أن غطى، في نظر التركي أنور مارون، منطقة الكاكاو كلها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب مع استطالة الحدود وامتداد المسافات أكثر فأكثر. فقد نجّاه من أخطار كثيرة: من الأفاعي السامة وأنيابها القاتلة، ومن وباء الجدري المميت، والكمائن والقتلة، والمعارك بين الجنرالات التي خلّفت الكثير من القتلى المرميّين على الطرقات وآثار البنادق والسكاكين بادية على أجسادهم.

عملِ أنور مارون - الكولونيل أنور مارون، المليونير الذي يملك مزارعَ يقدّر إنتاجها بثمانين ألف طن من الكاكاو - على شراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحاصيل الصغيرة التي لم يتمكن المزارعون الصغار من توريدها إلى مستودعات شركات التصدير في إليوس وإيتابونا. وقد جمع جميل محاصيل المزارعين الصغار بنفسه بناءً على الاتفاق المبرم مع ممثلي الكولونيل ميسايل تافارِس، ملك الكاكاو، أو الكولونيل باسيليو دي أوليفيرا، زعيم بيرانجي.

أمضى جميل أربع سنوات في ركوب البغال والحمير أو سيراً على الأقدام في الطرقات الفرعية الخطيرة، يجتاح الغابة ويشتري الكاكاو بأسعار بخسة. تعلّم المساومة والمحاسبة والطب، وبناء العلاقات وتأسيس الصداقات بصفته العرّاب الذي يعمّد الأطفالَ في الكنائس الكاثوليكية... فليغفر له الله وليسامحه.

كان الله عليماً بكلِ شيء وكان غفوراً، كان يرعاه في كل خطوة استجابة لصلوات المُلا. وكان جميل يملك الدليل على ذلك كله عندما نشب نزاعٌ بينه وبين الكولونيل أنور مارون أودى بعلاقتهما. ففي قرية فيرّاداس التي مضى إليها في مهمة، التقى بخوفي، وهي فتاة خلاسية نزَويّة شبقة، ووقع في غرامها. وسرعان ما أثارت هذه العلاقة الأقاويل التي وصلت إلى الكولونيل. كان أنور مارون قد خصص منزلاً لخوفي بعد أن أنقذها من ممارسة الدعارة، وكان يريدها أن تكرّسَ نفسَها له من دون أن يشاركه فيها أحد. لذلك، صفّى حساباته مع ابن بلده وطرده من العمل، لكنه لم يرسل قاتلاً مأجوراً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليكمنَ للرجل الجريء ويرسله إلى عالم الموتى. ومن المؤكد أن السبب في ذلك يعود إلى احترامه الشديد للمُلا.

عندما رأى جميل نفسَه في هذا المأزق الصعب، من دون عمل أو أحد يلجأ إليه، قدّم إليه الكولونيل نوبيرتو دي فاريا عرضاً. كان هذا الكولونيل أكثر ثراءً من التركي مارون، إذ كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي المزروعة بشكل عشوائي والقريبة من إيتاغواسو، وكان قد تعرّف إلى جميل في مواخير إيتابونا التي كان يرتادها بانتظام. فعندما سمع الكولونيل نوبيرتو، الذي كان يرغب في تطوير المستوطنة التي نشأت بالقرب من أراضيه، بالمشكلات التي حلّت بجميل، سأله هل يرغب في العمل في إيتاغواسو لحسابه الشخصي عوضاً عن العمل عند شخص آخر. ما الذي يمكن لجميل أن يطمح إليه أكثر من هذا؟ كان حلماً طالما راوده. ولكن من أين يأتي برأس المال اللازم لهكذا مشروع؟ قدّم نوبيرتو دي فاريا، الخلاسي المولود في سيرغيبي ويتمتع بالشرف والرؤية، المبلغ اللازم إلى جميل تعبيراً عن ثقته فيه واحترامه له. كان يسميه شريك مائدته وسريره لأنهما كانا يتشاركان الفتيات والطعام والذوق: الأثداء الصغيرة، والمؤخرات الكبيرة، والفروج الضيقة. إذ طالما وطّدت المتع المشتركة أواصر الصداقة بين الأشخاص.

أسس جميل مشروعه برعاية الله - الله أكبر - ورسوله محمّد بالأموال التي أقرضه إياها الكولونيل نوبيرتو دي فاريا. وبعد ثلاث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات كان قد سدّدَ الدّينَ المترتب عليه وباشر توسيع "المخزن" تدريجياً. كان يحتاج إلى وقت طويل ليرتقي إلى مستوى مخازن إليوس وإيتابونا أو قزى فيراداس وأوليفينسا وآغوا بريتا وبيرانغي، ولكن لن يمضي وقت طويل (من يمكن أن يشك في ذلك؟) قبل أن تتحوّلَ مستوطنة إيتاغواسو ويضاهي "المخزن" "مخزن الصفقات" الذي يملكه إبراهيم جعفر من حيث البضائع والزبائن. شكرَ جميل بشارة، الجالس على الرصيف أمام مخزنه، اللهَ لإنقاذه عندما كان على وشك الاستسلام للشيطان بدافع من الجشع والتسرّع وإغواء المال السهل والرحيل عن إيتاغواسو والزواج بآدما وتدمير حياته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

وقعت الأحداث عندما بدأ إبراهيم جعفر يدرك أن الأمور في غاية السوء. كانت البيانات المالية كارثية وكانت رياح الإفلاس تعصف بمخزنه الذي يديره صهره. وكانت الحياة المنزلية تنذر بما هو أسوأ من ذلك؛ فقد استلمت آدما العانس زمامَ أمور البيت والعائلة بحماسة كبيرة بينما كانت الغيوم المتلبّدة تهدّد ما تبقى من لحظات المتعة والراحة. كان وضعه الاقتصادي وحياته المريحة في عين العاصفة.

كان "مخزن الصفقات"، وهو دكان صغير لبيع الأقمشة والألبسة الجاهزة الذي يرتاده عدد كبير من الزبائن ويتمتع بمخزون جيد وسمعة طيبة في السوق، كافياً لتلبية حاجات العائلة لسنوات طويلة إضافة إلى متع المالك المتواضعة مثل صيد السمك ولعبتي الدّاما والنرد. كانت سلوى، زوجة إبراهيم، زعيمة القبيلة في حياتها وكانت تشرف على المخزن الذي شهد ازدهاراً كبيراً وحقق مدخولاً جيداً. كانت سلوى امرأة جميلة تتمتع ببنية قوية وعينين ذابلتين تشبهان أعين نساء التقويمات. ورغم صرامتها وقسوتها، فإنها كانت تتمتع باللطف والرّقة والدماثة.

كانت سلوى خبيرة في تسعير البضائع وعقد الصفقات، وكانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلجأ إلى شيء من الاحتيال في قياس الأقمشة وهي تضحك وتثرثر مع الزبائن الذين كان معظمهم من النساء. كانت رقيقة في المجاملة وقاسية في العقاب وكانت تتمتع باحترام الآخرين وتقديرهم، وقد أدارت المخزن وبناتها وزوجها بقدر عالٍ من المهارة والكفاءة.

كان رضوان مراد، المثقف المحبوب وصديق العائلة المقرّب ورفيق إبراهيم في لعبتي الدّاما والنرد، يطلق عليها لقبَ "الستّ". فقد كانت قاسية وأخلاقية لكنها كانت حنونة في تعاملها مع بناتها بقدر ما كانت رقيقة في سرير زوجها الذي كانت تبجّله وتخضع لرغباته في كل شيء... تخضع أم تأمر؟ كانت تفني نفسَها في العمل من أجل أن يتمتع بصيد السمك في الصباح أو بالقيلولة والمقامرة في العصر، ليأوي إليها في المساء حيث كانت تطفئ المصباحَ في التاسعة لتشعّ عيناها الساحرتان في شعائر الغرفة المظلمة.

Telegram:@mbooks90

هكذا هنَّ الزعيمات: قاسيات وصارمات مع الأشخاص العاديين، ومتهاونات وسَمحات مع المقرّبين. كان رضوان مراد يُسهب في هذه المواضيع أمام معجبيه الذين يتجمعون للاستماع له على طاولة البوكر أو في البار أو الكباريه أو بيوت الدعارة حيث كان يوزع الحكمة والتهريج. وكان يأخذ من إبراهيم جعفر مثالاً على أحاديثه بصفته صديقاً فريداً وسيداً عظيماً!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غيّر موتُ سلوى المفاجئ الأمورَ في البيت والمخزن. فقد أضاف إبراهيم، الذي شعر بالضياع، الزيارة الليلية إلى العاهرات على الصيد الصباحي ولعبتي الدّاما والنرد في العصر بحثاً عن شيء من التعويض والمواساة. لكن ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً سوى إبعاده عن غرفة النوم في المنزل الواقع فوق المخزن، التي صارت باردة وكئيبة بعد موت زوجته الحبيبة. فحتى لو تمكن بضربة سحرية من جَمع أولئك النسوة الخبيرات في سرير واحد، ما نجح في تعويض مهارة سلوى المتجددة وحكمتها الكونية. وهذه هبة إلهية، كما قال مراد، إذ لا يمكن أن تكون قد تعلّمتها في أي مكان أو أن يكون أحدٌ قد علّمها إياها. لقد ولّى سريرُ سلوى إلى الأبد!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

أخذت الفتيات مكان أمّهنّ في إدارة المخزن، لكنهنّ لم يكنّ مهتمات بالبضاعة أو الزبائن بقدر اهتمامهنّ بأصدقائهنّ. فمع غياب الفرامل الآن، كنّ يفعلن ما يحلو لهنّ. ففي حياة أمهنّ، كنّ يلوّحنَ للشبان من نوافذ البيت العليا كما تقتضي تقاليد الحب العذري، أما الآن، فاعتدنَ ملاطفة الرجال في المخزن وتقبيلهم ومعانقتهم عند بوابة الساحة الخلفية، باستثناء آدما التي لم تكن مغرمة بالبيع ولم تجد رجلاً يصادقها. لم يحالفِ الحظ الفتيات الصغيرات فتزوّجن شباناً من المنطقة نفسها. لم تختر أيٌّ منهنّ رجلاً من بلادهنّ لديه ميلٌ إلى الأعمال. كان زواج جميلة، البنت الثانية، موفقاً لأن أعمال العريس رانولفو بيريرا كانت في ازدهار مضطرد، إذ كان يملك بعض الحقول المزروعة في موتونز إضافة إلى محصول الكاكاو الذي بلغ أربعة آلاف طنّ. أما سميرة، التي تصغرها بسنتين، فكانت مقبلة على حياة متواضعة ومريحة بزواجها بعامل التلغراف كلوفيس إزميرالدينو. فمع أنه لم يكن ثرياً لكنه يتمتع بشيء من الألق والتقدير إذ يجيد التعاطي مع الكلمات والتلغيز وتفكيك الألعاب اللغوية ونظم الأشعار التقويمات، مع مدخول يأتي من مصادر مريبة. أما البنت الصغرى فريدة، فقيلَ أنها الأجملِ بين الفتيات التركيات اللواتي يعملن في ذلك المخزن: كعكة شهية، تبعاً للتعبير الشهواني الذي يستخدمه آلفيو باندیرا، الخياط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتدرّب الذي يعمل تحت أنظار المعلّم آتاليبا ريس، مالك مخزن "الخردوات الإنكليزية" الواقع مقابل منزل عائلة جعفر. وللحقيقة، لم يكن آلفيو معجباً بالطريقة الصفيقة التي تقدّم فيها هذه الكعكة الشهية نفسَها إلى الرجال مثيرة بذلك استنكار عائلات الحيّ. فمن الطبيعي أن يقودَ مثل هذا السلوك اللاهي إلى نهاية سيئة. لكن النهاية جاءت جيدة على هيئة زواج عاجل. كانت الشالات الحريرية تتماوج فوق بطن فريدة الصغير النافر، فقد كانت في شهرها الرابع، وكان تاجُها مزيناً ببراعم البرتقال التي ترمز إلى النقاء والعذرية. "عذراء تحت إبطيها فقط"، جاء تعليق المعلم آتاليبا الذي اختاره العريس عراباً له. "تحت إبطيها؟" قال رضوان مراد، الذي اختارته العروس عراباً لها، بريبة تليق برجل مثقف. لكن الاثنين كانا يتفقان مع الدونا آبيغيل كاخفايو، الخياطة المسؤولة عن فستان العروس، في تشبيهها لفريدة بالملاك الصغير.

كان آلفيو يناضل في "مخزن الصفقات" من دون كاكاو أو أجبيات لغوية. لم تكن تعوزه النيات الطيبة لكنه كان يفتقر إلى كل شيء آخر. فعندما حان الوقت لتنظيم الحسابات كان الأمر ضرباً من الجحيم. وعندما أدرك إبراهيم حقيقة ما يجري اكتشف أن صيده ومقامرته في الداما والنرد ومغامراته الليلية وعمله في خطر. لم يكن اللوم يقع بكامله على آلفيو لأن آدما كانت قد أعلنت حربَها الشرسة في ذلك الوقت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت حرباً مقدسة أطلقتها منذ تراءت لها روحُ سلوى في المنام وهي تتألم في العالم الآخر عاجزة عن احتلال مكانها في مملكة الرب نتيجة الشقاق الذي دبَّ في العائلة بعد موتها. إذ كيف يمكن لها أن ترفلَ في النعيم الأبدي وأحبّتها يرتعون في عالم من الإثم والخطيئة؟ وقد شنّت آدما حربَها لإنقاذ روح أمّها.

رسمت أهدافَها بعناية في ليالي الأرق والعزلة والتعاسة. ومع ذلك، لم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً بخصوص سلوك جميلة المتعجرف التي بدأت تتصرّف كسيدة ثرية حمقاء. كانت تحتسي القهوة وتتجشأ الشوكولاطة، وكانت آدما عاجزة عن فعل أي شيء معها، أو مع سميرة الوقحة التي يرى زوجُها فيها امرأة ساخرة مهرّجة ويتناولها الآخرون بصفتها فاجرة. كانت الأولى تعيش في موتونز والأخرى بالقرب من محطة القطار خارج دائرة سلطتها المباشرة. وفي المناسبات القليلة التي كانت المرأتان الوقحتان تزورانها فيها، كانت آدما تطلق العنانَ لغضبها منهما. كانت جميلة ترد بشيء من الترفّع والازدراء، أما سميرة، فكانت تضحك في وجهها وتسخر منها.

من جهة أخرى، تمكنت من التأثير في فريدة وآلفيو وإبراهيم الذين لم يجدوا طريقاً للهرب من سلطتها. فقد عملت على تنظيم البيت وفرضت عليهم بعض اللباقة في عاداتهم اليومية. إذ أرغمت فريدة، الملاك المسكين، على التخلّي عن حياتها السعيدة والمساعدة في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الواجبات المنزلية الكثيرة والمرهقة، بدءاً من العناية بابنها (زجاجات الحليب والحفاضات الوسخة والثياب الرطبة والبكاء والنونو والإقياء) عوضاً عن الاستمرار في سلوكها المخزي مع آلفيو الذي كانت تتبادل معه القبل واللمسات أمام الزبائن كأنهما لا يزالان في مرحلة المغازلة. فبما أن آدما لم تكن هي التي تتلوّى عند بوابة الحديقة، لماذا يكون عليها العناية ببولِ الطفل وبرازه؟

لكن هدفها الرئيسي كان إبراهيم، حيث كان يكمن التحدّي في إنقاذه من الفوضى والجحيم اللذين أغرق نفسه فيهما منذ ترمّله وتخلّيه عن الشؤون المنزلية كلياً. فإنِ استطاعت آدما إعادته إلى الطريق الصواب، فربما يمكن لروح سلوى العبور إلى الفردوس الأبدي. كانت مهمة إلهية، وقد شرعت في تنفيذها بغض النظر عما يمكن أن يترتّبَ عليها.

Telegram:@mbooks90

ورثت آدما عن سلوى شخصيتها القوية وصرامتها وموهبتَها القيادية. ومن المؤسف أنها لم ترث عنها معالمَ وجهها أو قوامها. فقد كانت تشبه أباها، إذ كانت هزيلة لا تتمتع بأثداء وأوراك أمها وأخواتها أو بذلك التمايل في المشية أو العينين الكبيرتين أو الشعر الحريري. كما تحوّل ذلك الزغب الرقيق الذي كنّ يتمتّعن به فوق الشفة العليا، وهو علامة أخرى من علامات الجمال، إلى شارب كثيف. من المسؤول عن ظلم السماء؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مع التقدم في السن واليأس، تحولت الهباتُ الأخلاقية التي ورثتها عن سلوى إلى نوعٍ من العدوانية والعصبية. لم يطلق عليها رضوان مراد، ذلك الدارس للطبيعة البشرية وقوانين السببيّة، لقب "الستّ" بل كان يشير إليها بصوت منخفض بالمسترجلة!

اكتشف إبراهيم، وهو يتأمل المشكلات التي تواجهه خلال أوقات الصيد الصباحي المهدّد، أن هناك حلاً واحداً كفيلاً بوضع حدّ لأزمته الأخلاقية والمالية وتخليصه في الوقت نفسه من حماقة صهره واستبداد ابنته الكبرى، أما الثلاث الأخريات، فكنّ مصدراً لسعادته. كان عليه أن يجد أحد أبناء بلده العازبين الفقراء ليديرَ "مخزن الصفقات" ويتزوج آدما. إذ إن دمه العربي سيضمن ميله إلى الأعمال وجاهزيّته للعمل. كما أن وضعه المقبول سيسهّل عليه تحمّل نفقات العرس. فإن لم تجرِ الأمور على هذا النحو، فكيف له أن يواجه القبحَ عوضاً عن الجمال والمرارة بدلاً من السكينة والرضى؟

يعرف الجميع، كما تقول الكتب أيضاً، أن جمال المرأة لا يكمن في مفاتنها الجسدية ولا يأتي في الدرجة الأولى. فجمال المرأة يكمن، قبل كل شيء، في الفضائل التي تزيّن قلبَها وتجمّل روحَها. فإذا أخذنا بالاعتبار فضائل آدما الاستثنائية - بصفتها وريثة وشريكة في أرباح المخزن، إضافة إلى عذريتها النقية - كيف يمكن لأحد القول إنها ليست جميلة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فوق هذا كله، لم تكن آدما من النوع المتفاخر على غرار أختها كما أنها لم تكن من النوع الغبي. كانت تتمتع بنقاء صرف، إذ لم تعرف الرجال عن قرب ولم تشاهد طلوع القمر بالقرب من بوابة الحديقة. فمع هذه الأشرطة والزراكش التي تزيّن آدما، إضافة إلى الأرباحِ التي تأتيها من المخزن، من يعرف إن كان سيجد مرشحاً قادراً على سوقها إلى المذبح وتقديم ذلك الصنيع الكبير له؟

يا لها من مهمة صعبة، لكنها ضرورية وعاجلة وحيوية، فقد بلغت آدما سنَّ المرارة والشرّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

في البار، طلب إبراهيم نصيحة رضوان مراد ورأيَه وهما يلعبان النرد. وقد لاقت فكرتُه حماسة كبيرة واستعداداً للمساعدة الكفيلة بإنجاح خطته.

"يمكنك الاعتماد عليّ يا صديقي إبراهيم. سوف نعمل معاً على الإيقاع بهذه الطريدة الاستثنائية. فلنبدأ تحليل القضية بشيء من العمق".

ستكون هذه التسلية هبة من السماء، شيئاً مصمّماً لملء أوقات الفراغ في تلك المدينة المولودة حديثاً والخالية من المتعة. لم يكن هناك شيء يفعله المرء خارج القمار والبار والكباريه وبيوت الهوى. أغلق رضوان مراد، الذي سحرته قصة صديقه، عينيه بشيء من السعادة والرضى. كان يعارض فقط مفهوم الجمال الذي قدّمه إبراهيم من دون أن ينكر أنه مألوفٌ في الأطروحات الأخلاقية.

"الأطروحات الأخلاقية ضربٌ من النفاق! ربما تكون الفضيلة معبراً إلى النعيم بعد الموت أما في السرير، يا صديقي إبراهيم، فما يهمّ هو اللحم، أي ما يُدعى 'المادة'".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد أن وضعا الخطة المطلوبة استعرضا جميع أبناء البلد المقيمين في إيتابونا. كان معظمهم يميلون إلى العمل ويتمتعون بشيء من الجديّة. وقد صدف أن أحد هؤلاء الشبان - أديب، الأصغر بين ثلاثة إخوة ويتيم الأب والأم - يعمل في ذلك البار. كان مرحاً وواثقاً من نفسه ويتمتع بخبرة واضحة في جمع المال وتحسين حياته، ما يجعله مرشحاً مناسباً. أما المشكلة الوحيدة، فكانت في سنّه، إذ كان صغيراً جداً مقارنة بآدما.

"لقد تجاوزت آدما الثلاثين"، قال إبراهيم.

استبعد رضوان هذا الاعتراض. فالفرق في السن لا يشكل عائقاً أمام الزواج الناجح. ما يحتاجه شاب صغير في بداية حياته هو زوجة مدبّرة حكيمة تضعه على الطريق الصحيح. فعندما يكون الزوج أكبر من الزوجة يبقى خطر الخيانة قائماً، أما في الحالة المعكوسة، فليس هناك أي خوف. المرأة لا ينمو لها قرنان. أليس هذا صحيحاً؟ إنه منطق متين للغاية.

صمّم الاثنان على المضي في خطتهما وألا يضيّعا الوقت. ألَا يشعر أديب بالرغبة في الزواج وتأسيس منزل، منزل جميل، تزيّنه زوجة وأطفال؟ فوجئ النادل بالسؤال ثم فكر قليلاً وقال إنه لا ينوي الزواج في الوقت الحاضر، لا يا سيدي. لم يكن قد بلغ العشرين بعد. كان لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يزال صغيراً على هذا النوع من الارتباط، خاصة في تلك الظروف، لأنه كان مغرماً ببروكوبيا.

"بروكوبيا؟" أثار ذلك اهتمام رضوان. "زوجة القاضي المدني؟"

لعق أديب شفتيه بطريقة بذيئة تنمّ عن الشهوة والرضى.

"إنها هي. نعم يا سيدي".

كان الخبر مثيراً للاهتمام لكنه لم يكن ذا أهمية كبيرة. كان رضوان مراد، موسوعة الحياة المدنية والريفية، على معرفة بكل ما يجري في إيتابونا والمناطق المجاورة لها بما في ذلك توافه الأمور على ما يبدو. كان خزاناً فريداً من المعلومات، وعندما تخفى عليه بعض التفاصيل المثيرة كان يبتكرها بنفسه فيصيب عينَ الحقيقة في معظم الأوقات. وعندما يتطلب الأمر كان يستشرف الأحداث بطريقة تصيب جمهورَه بالذهول. فالحياة، في نهاية المطاف، ليست سوى لعبة بوكر؛ كل ما عليك فعله هو أن تستبدلَ الأحداثَ والأشخاصَ بورق اللعب والفيشات. ففي كلتا الحالتين، على طاولة القمار أو في يانصيب الحياة، لم يكن رضوان يدينُ الخداع، بل على العكس. لم يكن معصوماً لكنه لم يكن يخطئ إلا في ما ندر. أطلق تنهيدة عميقة وهو يتذكر نهدي بروكوبيا. كانت مجنونة تماماً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"مبروك أيها الشاب، ولكن خذ حذرك من القاضي. فالدكتور غراسيندو أشبه بسيّد إقطاعي. وإن ساوره أدنى شك حول هذه العلاقة المحرّمة، فسوف يزج بك في السجن ويلقنك درساً أليماً في احترام نساء الآخرين".

كانا على وشك استبعاد أديب من قائمة المرشحين عندما سمعاه يضحك قائلاً: "لكنني أؤكد لكما أنني لن أرفض ابنة أحد ملّاك المزارع الأثرياء إذا رماها القدر في طريقي...".

تبادل الصديقان النظرات: مزرعة كاكاو أو مؤسسة تجارية، لا فرق يُذكر. احتفظا بأديب على قائمة المرشحين، وكان المرشحَ الوحيد عندها. سوف يعودان للتحدث إليه في الموضوع في حال لم يجد إبراهيم مرشحاً أفضلَ في إليوس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

عصفَ الإلهامُ برضوان مراد وهو يحرّك أحجارَه بشيء من اللامبالاة فتوقف عن اللعب وربت على كتف شريكه معلناً: "أخبار رائعة يا صديقي إبراهيم. وجدتُ الرجلَ المناسب الذي نبحث عنه. وهو شريك وصهر مثالي معاً. خطر لي الأمر الآن. اسمه جميل بشارة. هل تعرفه؟"

كان إبراهيم يعرفه عن بُعد. كان يعرفه بالشكل وقد سمع به أيضاً. أحد أبناء البلد ويتمتع ببنية قوية وصوت جهوري. لم يكن اسمه يفارق شفتي غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية اللذيذتين، تلك المرأة الجميلة التي تشبه الوباء: جميل هذا وجميل ذاك، وكانت تقصّ الحكايات المضحكة وتندب غياباته الطويلة. كان قد اختفى مؤخراً من شوارع إيتابونا مخلّفاً شعوراً بالفقد.

"توقف عن العمل عند أنور مارون"، قال رضوان، "وافتتح عمله الخاص في واحد من تلك المخازن المتناثرة في الغابة. لا أعرف المكان بالضبط. لقد سمّى لي المكان لكنني نسيت. لا بدّ أن غلورينا تعرفه. فعندما يأتي إلى هنا لا يذهب إلى الفنادق أبداً بل يمضي مباشرة إلى غرفتها وكأنه مالك مزرعة أنتجت طنّين من المحصول تشكل العاهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جزءاً منه".

لم يكن لدى رضوان شيء آخر يضيفه حول مكان "السلطان" ومخططاته (كان قد أطلق هذا الاسم على جميل بسبب ولعه بالنساء). فقد مضى زمنٌ طويل على لقائهما الأخير في ذلك البار بالتحديد حيث كان برفقة غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية. كان يتذمّر حول عمله الشاق ونوعية العاهرات الرديئة في أقاصي الأرض التي ألقى نفسَه فيها. فإذا كانت تلك المشكلات لا تزال قائمة، من المؤكد أن جميل سيأخذ عرضَ إبراهيم على محمل الجد. لم يكن رضوان يعرف أحداً أكثرَ تلهّفاً للعمل وجني المال. كان مثالياً كشريك. وبالنسبة إلى الزواج، كان عليهما أن يكتشفا هل يقبل جميل هذا التحدّي.

"لأن العزيزة آدما، والكلام بيننا، يا صديقي إبراهيم ... لا يمكنني أن أنكرَ فضائلَها - أنا خطّاء ولا أفهم هذه الأشياء. لكن شكلها..."

"أعرف أيها العجوز. إنها تشبهني. هذه هي مصيبتها".

لم يكن الكلام مفيداً لأن الطرفَ المعنيّ لم يكن موجوداً لمناقشة الحالة الاقتصادية والحسابات والأوراق النقدية أو مفاهيم الجمال والمعايير الجسدية والأخلاقية. فقد اختفى من دون أن يعرف أحدٌ متى يعود إلى إيتابونا. مع ذلك، نصح رضوان إبراهيم بالصبر والتأنّي. لكن الاقتراح قوبل بالرفض الفوري. لا، يا صديقي العزيز، لم يكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوسعه الانتظار يوماً آخرَ لحلّ تلك الأزمة، قبل أن يدمّر صهره آلفيو وذلك الملاك المخزنَ كلياً، وقبل أن تحكمَ ابنتُه آدما - ابنة؟ بل قُل حاكمة أو وَليّة - سيطرتَها على كل شيء وتحوّله إلى عبد، إلى خَصيّ.

أطلق إبراهيم العنانَ لشعوره العارم بالعار بصوت متهدّج وعينين دامعتين ومن دون أدنى اعتبار لكرامته المهدورة، شارحاً مأساته المرعبة: "يا صديقي العزيز، رضوان. سأعترف لك بكل شيء، بذلك العار الذي حلّ بي. إن فضائلَ ابنتي آدما هي السبب...".

"لم أثق بهذه الأشياء أبداً. فالفضيلة حزينة وتنزع إلى الهيمنة"، قال رضوان المتعطش إلى تفاصيل هذه الحكاية، مشجعاً صديقه على الاستمرار في اعترافاته، "لا تخجل، يا إبراهيم، افتح قلبك. نحن عائلة واحدة".

كانت آدما مستعدة لتقييده في المخزن من الصباح حتى المساء والحكم عليه بالزهد في الليالي محوّلة حياته إلى جحيم، تحدوها نزعة متفاقمة من العنف والاستبداد. "نقمة عارمة يا صديقي". فضيحة بعد أخرى بعثت السرور في قلوب الجيران. ففي صباحات الصيد، كانت تتهمه بالتقاعس وإهمال عمله للتسكّع على ضفاف النهر، وبالاستهتار عندما يأخذ قيلولة المساء في الأرجوحة المعلقة بالساحة بين شجرتين، وكذلك لذهابه إلى البار ولعب الدّاما. وكان الأمر يسوء في الليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما يهمّ بالذهاب للترويح عن نفسه بعد العشاء مباشرة. كانت آدما تشدّ شعرها وتصرخ بأعلى صوتها. وكان الناس يتجمعون في الشارع ليستمعوا لها. وفي الصباح الباكر، كانت تنتظره وهي تحمل الحجارة في يديها. هذا هو الجحيم الذي يعيش فيه...

"أعرف هذا جيداً، يا إبراهيم. لقد رأيت بأمّ عيني. ولن أنسى ذلك ما حييت".

شعر إبراهيم بضعفه وتلاشي قدرته على المقاومة. فقد اكتفى بالصيد مرتين بالأسبوع واختصر أوقات القيلولة المسائية وبذل جهداً أكبر في المخزن. صارت حياته أشبه بحياة العبيد، شيئاً يبعث على الحزن. ولكن كانت هناك أشياء أسوأ، أسوأ من ذلك كله بكثير.

"يجب أن أبوحَ لك بكل شيء، يا صديقي! فأنا لا أتنازل عن شخصيتي فقط..."، ثم خفض صوته وعينيه، "بل عن ذكورتي أيضاً...".

"عن ذكورتك يا إبراهيم؟ كيف يمكن هذا؟"

"السحر!" لقد انتهى به الأمر ضحية للسحر. حدث ذلك عندما كان يضاجع إحدى العاهرات، وفجأة، وهو في ذروة متعته، سمع صوت آدما الشريرَ وتلامحَ له وجهُها العبوسُ في الظلمة ففقد رغبتَه فوراً. لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكن تلك نهاية الأمر. فقد استطالت اللعنة طوال تلك الليلة. لم يكن في وسع العاهرة أن تفعل شيئاً ولم تكن هناك أي وسيلة يمكن أن تعيد عضوه إلى انتصابه السابق.

"إنها تخصيني يا صديقي رضوان".

"الأمر أسوأ مما ظننت يا إبراهيم. لذلك لا يمكننا انتظار جميل بشارة أو أي أحد آخر. عليك أن تذهب إلى إليوس فوراً، غداً، وأنا سأذهب وأتحدث إلى أديب. والحالة هذه، حتى الزواج، لن يفلحَ بعد مدة قصيرة في إنقاذ آدما".

في اللحظة التي كان إبراهيم يبوح فيها ببؤسه وتعاسته لصديقه ومستشاره، حدثت مصادفة غريبة جديرة بالذكر في سياق هذا السرد الموثوق لمراسم زواج آدما، حيث لا تنفك المصادفاتُ واللحظات السحرية تتلاقى وتتقاطع. ففي ذلك المساء الساكن، بعد أن ألقى حقيبته في غرفة غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية واستحمَّ لينفض عنه غبار الرحلة، كان جميل بشارة على أتمّ الاستعداد لإنعاش جسده، وهو السبب الذي دفعه إلى المجيء إلى إيتابونا. لكي يزوّد مخزنه بالبضائع ويشبع شهوته، ويرقص في الكباريه، ويمرح قليلاً مع رضوان مراد، ملبّياً بذلك حاجاته الجسدية والروحية.

لم يكنْ في مقدور أيّ من الشخصيات المجتمعة في البار أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيت الدعارة أو الدور السكنيّ الثاني أن تدرك أن تلك الأحاديث والأنشطة كانت جزءاً من خطة الشيطان. فعلى رقعة الشطرنج هذه، كان يرتسم قدرٌ جميل كما تحدّد هذه المقايضة أرواحَ الشخصيات الأخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

بينما كان جميل بشارة ينهل من المتعة المتدفقة في غرفة غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية، وبينما كان إبراهيم جعفر - الذي ينوء تحت ثقل عاره - قد عقد العزمَ على تناول العشاء في البيت ومواجهة غضب ابنته آدما، كان رضوان مراد يجلس في بار "سانتي" الخالي من الزبائن في تلك الساعة ويتأمّل في الوضع الكارثي الذي يحيق بصديقه ورفيقه القديم.

إن السعادة لا تدوم، كما يُقال، وحالة إبراهيم دليلٌ ساطع على ذلك. فهذا الرجل الذي كان منذ سنوات قليلة فقط تاجراً ثرياً ورجلَ عائلة محترماً لديه كل أسباب المتعة وزوجاً لامرأة فريدة في كفاءتها وفضيلتها قد تحوّل بين عشية وضحاها إلى هذا الشيء الذي نراه الآن. فبعد أن كان قرّة عين الست سلوى - الباشا المدلّل! - صار قاب قوسين أو أدنى من الإفلاس والعجز الجنسي. شرب رضوان مراد نخبَ سلوى وأفرغ كأسَ العرَق الذي كان يحتسيه.

لم يكن رضوان يتناول الغداء أو العشاء في أوقات محددة (إلا عندما يكون مدعواً)، وكذلك الأمر لمواعيد النوم. كان يفعل ذلك أثناء الاستراحة من كتابة النثر الأنيق، الفن الذي يعشقه، ومن لعب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البوكر، مهنته الأساسية، ومن الكتب التي كان يقرؤها ثم يعيد قراءتها، ومن أحجار الدّاما وطاولة النرد، ومن أوقاته الحمراء مع العاهرات ولهوِه البريء. مقابل ذلك كان قادراً على الشرب في الوقت الذي يريده وفي أي ساعة. كان يفضل تناول المشروبات الكحولية بطعم اليانسون. كان يجيد الشرب لكنه كان يظهر براعة أكبر في الثرثرة والهذر.

كان يجلس وحيداً في البار عند مغيب الشمس، يتلذذ بمشروبه ويهيّئ نفسَه لمغامرات الليل المتنوعة. لم يكن عليه الغش ليربح في لعبة البوكر في البهو الخلفي في "أوتيل دوس لوردس". كان يلجأ إلى الغش في بعض الأحيان ليلقّنَ الغشاشين درساً في اللباقة. كان فطناً بما يكفي ليحدد طبيعة الغش ويسارعَ إلى الالتفاف على الموقف بمهارة كبيرة. كما كان يكشف الخداع ويستغلّه لمصلحته بثقة مذهلة. وكما يقول لاعبو الورق، كان يغني لحنَ خصومه. وفوق ذلك كله كان يتمتع بهبة النبوءة.

Telegram:@mbooks90

كان عاشقاً يغدق الإطراءَ والأوهام الجميلة. لذلك، كانت العاهرات يتنازعنَ على كسب ودّه وسريره. كانت الألسنة الشريرة تتهامس بأسماء العشيقات والنساء المتزوجات. وكانت العذارى يحدّقنَ من بعيد في جسده النحيل الجميل وسترته القطنية البيضاء الفاخرة وشعره الأشيب وأصابعه الطويلة التي تحمل بزَّ السجائر العاجي، ثم يطلقن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التنهيدات. كان عازباً في الخمسينيات لكنه أكثر جاذبية وسحراً من أي شاب آخر. بعد أن أفرغ كأسَه أخذ يفكر في مصير إبراهيم الذي يشكل مزيجاً من الكوميديا الرخيصة والميلودراما.

كان مالك البار، سانتي، قد جمع غلّة اليوم، بعد أن ترك مبلغاً صغيراً، ومضى لتناول العشاء في المنزل. كان أديب يغسل الكؤوس ويخلط المشروبات ويرتب الزجاجات ويجهز البار للصّخب الليلي الوشيك. كانت لحظة ملائمة للتحدث إلى هذا المرشح المحتمل على طاولة الغذاء المجاني.

كان رضوان يشعر بواجب مساعدة إبراهيم البائس في صراعه للخروج من مأزقه والتغلب على حظه العاثر واستعادة حقه في الراحة والسكينة من باب الوفاء لصداقتهما القديمة ورفقتهما وذكرى عيني سلوى، سلوى المنيعة، ولكن فوق كل شيء للتمتع بلعبة أخرى مثيرة كلعبة البوكر، لعبة القدر المذكورة سابقاً حيث يشكل الناسُ أوراقَ اللعب ويتمثل الرهانُ في الحياة نفسها.

أغمض عينيه. كان الليلُ يُداني ضفة النهر المقابلة التي لم تكن مأهولة بعد، وكانت أحابيلُ السحر والشرّ تتربّص بالمخزن الصغير. وفي مواجهة هذه الأزمة، كانت أسلحة رضوان مراد تتمثل في الحكمة والخداع. طلب من أديب أن يأتيه بكأس أخرى من العرق ثم سرعان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما بدأت الأسئلة والمفاوضات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9

لم تُعرف قط التفاصيل الدقيقة للحديث الذي جرى بين رضوان مراد والشاب أديب بارود في ذلك الغسق الذي خيّمَ على إيتابونا. فقد تحدث الاثنان بينهما واحتفظا بالمسائل التي ناقشاها لنفسيهما. لكن ذلك لم يمنع البعض من إعادة إنتاج الحديث الطويل نقطة بنقطة، مشيرين إلى نبرة الصوت وموجات الضحك وعمق أوقات الصمت. وقد قال البعض إن الحديث بدأ بالعربية وانتهى بالبرتغالية، وأقسم آخرون على عكس ذلك إذ بدأ بالبرتغالية ثم انتهى بالعربية، وهي لغة لم يكن أديب، البرازيلي المولود في جنوب باهيّا، يعرفها جيداً.

لإضفاء بعض المصداقية على النسخة المتداولة، الجديرة بالتصديق والرواية، فعندما حصل رضوان على شراب اليانسون الذي طلبه سأل النادل: "وماذا عنك أنت؟ ألا تتناول العشاء أيها الشاب؟"

ردّ أديب بالإيجاب. نعم، كان يتناول طعام العشاء ويبالغ في الأكل أيضاً. كان يأكل الطبق الذي تعدّه الدّونا لينا، زوجة سانتي. كان سانتي يجلب له الطعام من البيت. ثم أضاف تعليقاً ظريفاً حول زوجة مديره: "الدونا لينا جميلة جداً. ألا توافقني الرأي، يا بروفيسور؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها ردفان مثيران..."

رغم أن رضوان لم يكن مديرَ مدرسة أو حتى مدرّساً خصوصياً فإن الكثير من الناس كانوا يدعونه البروفيسور، وقد قبلَ اللقبَ من دون إبداء أي نوع من الدهشة أو الغرور. أبدى اهتمامَه بالطريقة التي تمكن بها أديب من إغداق المديح على ردفي لينا. حدث الأمر مصادفة، فعندما ذهب ليوصلَ رسالة إلى منزل سانتي، وجد السيدة المذكورة مقرفصة تغسل الثياب في الحوض وقد ارتفعت تنّورتها وبانَ ردفاها، وقد اختلس النظر إليها. فبالإضافة إلى جرأته، كان أديب شخصاً حشريّاً.

"يقول البعض...".

قاطع رضوان العارف بما يقوله البعض ثرثرة أديب. "السماعُ مكسب يا بنيّ، لكن تكرار ما تسمعه ليس كذلك. انسَ ما سمعتَه إن لم تكن ترغب في فقدان عملك".

فقدان عمله؟ فليحمِه الله ويرعاه! فمن عمله في هذا البار الحيوي، كان أديب على احتكاك مع الأثرياء وذوي النفوذ، نخبة المدينة، المتابعين للأحداث والقصص، كما كان يمتّع نفسَه بالعاهرات اللواتي كنّ يتردّدنَ على المكان ليتصيّدنَ الريفيين البسطاء. فهل يفرّط بهذه الميزات كلِها؟ سيكون ذلك ضرباً من الجنون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل ذلك عملَ ثلاث سنوات في "مخزن الأزياء" الذي يملكه أخوه عزيز. هل كان يحب عمله في المخزن؟ إن كان عليه العمل في أي مكان، فهو يفضل البار للأسباب المذكورة. فقد بدأ عمله في ذلك المخزن من دون أي أجر، لاكتساب بعض الخبرة فقط، ولم يتقاضَ أجراً دورياً، راتباً، إلا من بداية السنة الماضية. وبما أنه لا يرى في نفسه بغلاً يحمل الأثقال، ترك العمل في المخزن.

ماذا عن الشراكة؟ إن مجرد فكرة الشراكة، أو حتى تقاسم الأرباح، يا بروفيسور، مسألة جديرة بالاهتمام. لأن عزيز لن يعطيه نسبة من الأرباح مهما عمل بجد وإخلاص وأسعدَ الزبائن. "مخزن الأزياء لبارود وأخيه"؟ مستحيل! كان حلمه يتمثل في امتلاكه مزرعة كاكاو، على غرار سعد أخيه الأكبر وصهر الكولونيل جواو كونيا الذي كلّفه إدارة أعماله كلها فصار يكدّس الأموال.

"أنت لست من النوع الذي يتورط في هذه الأشياء... أليس كذلك يا بروفيسور؟ فأنت تعيش حياة سعيدة ومريحة. ولكن ليس في مقدور أيّ كان أن يعيش حياة مريحة مثل حياة اللورد من دون عمل. فلكي تتمكن من ذلك، يجب أن يغزو الشيبُ رأسَك".

يا لك من وغد، فكر رضوان مراد مبتسماً بلطف وهو يستمع لهذا التعليق المفاجئ. كم من الأشخاص يفكرون في الشيء نفسه من دون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يتجرؤوا على التعبير عنه؟ شعر بالأسف لاهتمام أديب بابنة مالك مزرعة وإعراضه عن ابنة تاجر. شيء يدعو إلى الأسف حقاً.

"من قال ذلك يا بروفيسور؟ دلّني فقط على واحدة يمكنني الحصول عليها وسوف تراني ألهث في طلبها. لديّ طاقة كبيرة للعمل. يمكنك أن تسأل عزيز. فهو لا ينفك عن محاولة استرجاعي لكنني أفضل العمل عند السنيور سانتي. يمكنك أن تتعلم بعض الأشياء هنا".

"حتى لو لم تكن البنت جميلة، أو ربما قبيحة بعض الشيء؟"

"ليست هناك امرأة ثرية قبيحة".

"أنت محق في هذا يا بنيّ. من الواضح أنك تلقّيتَ تربية جيدة".

لقد تلقّوا تربيتَهم الجيدة في البيت وبالتسكع في الشوارع. ففي سن المراهقة، تعلّموا ومارسوا القوانين والأعراف السائدة في المنطقة، القوانين الراسخة غير المكتوبة. فعندما يأتي الوقت لكي يتخذوا زوجة كان عليهم أن يختاروا امرأة عذراء فاضلة وكادحة قادرة على إنجاب الأطفال وتربيتهم والعناية بالمنزل، امرأة تتّسم بالحرص والتواضع والخنوع. فالجمال والصّبا خاصتان ثانويتان، وخاصة إذا كان مهر العروس يُقاس بالأراضي الشاسعة أو عدد أبواب المخازن التجارية... كان لـ"مخزن الصفقات" ثلاثة أبواب مطلة على الشارع. يبحث الرجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن الجمال والكياسة والصبا عندما يروم عشيقة أو علاقة عابرة أو علاقة جنسية في السرير. ففي تلك الحالات، يتطلب الأمر عاهرة جميلة شابة تتمتع بفرج دافئ. هذه هي المبادئ الصحيحة التي تقوم عليها العائلة ويتأسس عليها المجتمع.

"وماذا لو كانت الفتاة التي نتحدث عنها أكبر منك بسنتين؟" سأله رضوان.

"ما علاقة هذا بالأمر، يا بروفيسور؟ لم أسمع قط أن التقدم في السن عورة. المهم في الأمر ألا تكون مفتوحة. فأنا لن أردم حفرة فتحها شخص آخر. لا بدّ أن تكون عذراء".

تأمّل رضوان الشاب الذي كان يبتسم ويفرك يديه من فرط الحماسة التي ولّدها هذا الحديث.

"إن كنت تعرف امرأة، يا بروفيسور، أعطني عنوانها وسوف أهتمّ بالباقي".

لِمَ لا؟ كانت آدما صفقة صعبة يصعب هضمها. إذ تتطلب مواجهتُها الكثير من الحسم والشجاعة والقدرة على التحمّل كالجمال. كان أديب طويلاً ونحيلاً وقويّ البنية ومعتوهاً. كان شبابُه وجشعُه يؤهلانه لكي يأكل التّبنَ بتلذّذ ويواجه عانساً نكدة وفظة ويفضّ عذريتها بمتعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كبيرة ثم يوقد النار في كيانها كله ويزرع فيها الغبطة والرضى. فإن وجدت آدما رجلاً قادراً على إشباعها، فلن تكون عبئاً على البشرية بعد ذلك.

احتفظ رضوان مراد بهذه الأفكار القذرة لنفسه ثم انتقل إلى نبرة شعرية حكيمة قبل أن يعلن اسم الفتاة العذراء التي تنتظر زوجاً. قال بالعربية إن بعض العذراوات يشبهن النبيذ إذ يصبحنَ أشهى مع مرور الوقت، ثم رويداً رويداً يصبحن أكثر نقاوة وعذوبة، ليتحوّلن في النهاية إلى مشروبات قوية مركزة مثل البراندي أو الكونياك.

"أعرف واحدة، نعم يا بنيّ، فتاة أشبه بنبع الفضيلة، طاهرة كمريم العذراء".

"من هي يا بروفيسور؟ هيا، قل لي".

"هل تعرف إبراهيم جعفر؟ كان برفقتي هنا منذ قليل".

"نعم أعرفه يا سيدي".

"وهل تعرف بناته أيضاً؟"

"أعرفهنّ أيضاً. كل واحدة أجمل من الأخرى".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"باستثناء واحدة".

"لحظة، يا بروفيسور. بدأت أفهم ما ترمي إليه الآن. تريد أن تتحدث عن تلك الفتاة الانعزالية. أليس كذلك؟"

"الرجل الذي يتزوجها يصبح شريكاً في المخزن..."

لم يعرف أحدٌ النقاش الذي دار بين رضوان مراد والشاب أديب بارود والقرار الذي توصلا إليه في مساء إيتابونا ذاك. قيلت أشياء كثيرة حول ذلك لكنها كانت ضرباً من الشائعات والحكايات المفبركة. فقد قال سانتي مثلاً إنه عندما عاد من العشاء سمع كلمات أديب الأخيرة التي تحولت، بعد أن قيلت مراراً وتكراراً أمام الله والناس، إلى نوع من التعويذة السحرية. ولكن كيف تمكن من فهمها؟ إذ قال سانتي لمستمعيه إن الرجلين كانا يتحدثان بالتركية. لكن مالك البار، وهو معتوه من سيرغيبي، لم يكن يفهم شيئاً من العربية التي كانت تمثل له نوعاً من الغمغمة المعقدة العصية على الفهم.

على كل حال، ثبتت صحة هذه العبارة المنسوبة إلى أديب بارود التي انتهت بها الجلسة بين الرجلين: "اترك الأمرَ لي، يا بروفيسور. يمكنكِ ترويض المرأة بالرّبت أو الضرب. أو ربما بقليل من الاثنين معاً".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سواءً صدرت العبارة عنه أو عن شخص آخر، لاقى ذلك التأكيد قبولاً عاماً واستحساناً صادقاً. كان أديب بارود، هذا الشاب الذي يبعث على الدهشة، الابنَ الأصغر لمحمود وأريزة المتوفّيين. وقد عاش يتيماً وعلّم نفسَه بنفسه مما تيسّر له. يا لها من نشأة قويمة رائعة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

10

تبَدّى فوراً أن جميل بشارة وإبراهيم جعفر كانا توأمين روحيين خُلقا ليفهمَ أحدُهما الآخر ويقدّره. التقيا في الكباريه حيث عرفت غلورينيا، ذات المؤخرة الذهبية، أحدهما إلى الآخر. ولم يمضِ وقتٌ طويل على ندمها لفعلتها. فعوضاً عن الاهتمام بها غرق التركيّان في الثرثرة متجاهلين إياها كلياً كأنها قطعة من قطع الأثاث المترامية في المكان. شعرت غلورينيا بالإهانة ومضت للرقص مع تشيكو لوبيس، البائع المتجوّل المهووس بصيد العاهرات. كان يحاصر غلورينيا منذ بعض الوقت دون أن يحقق أي نجاح حتى تلك اللحظة. لم تكن غلورينيا لتقدّمَ نفسَها مجاناً إلا في المناسبات التي تتعرض فيها للخداع، ما يشوّش محاكمتَها العقلية للأشياء. ليس بدافع الجشع، بل من باب الضرورة. كانت قد جاءت من لارانخيراس إلى إيتابونا تاركة وراءها أربع أخوات عذراوات وأمّاً مشلولة وأباً يكدح في أراضي الآخرين ليعزّي نفسَه بكؤوس الكاشاكا. كان أولئك جميعاً، بالإضافة إلى عمّتين مخبولتين - "مخلوقاتي العزيزة الحبيبة"، كانت تقول باكية في كل مرة تتذكرهم - يعتمدون عليها وعلى المبالغ الزهيدة التي ترسلها إليهم عن طريق أوريليانو نيفيس، مالكِ "كاسا سيرغيبانا" للمفروشات الفاخرة، وأحد أبناء الأبرشية التي تتردد عليها أيام السبت.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت البنت الصغرى، وهي فتاة خلاسية لعوبة في ذروة صباها، قد منحت عذريّتَها مجاناً لابن القاضي، ابن الكلبة ذاك، الذي أقام الدنيا وأقعدها ليحصل عليها ثم تخلى عنها من دون كلمة وداع بعد أن ضاجعها، ما أغضب أباها الأخلاقي السكّير. كان قد وعد بشراء منزل لها يتردد عليه لمطارحتها الغرام. وبطريقة غريبة، شعرت بنوع من الامتنان لأنه جلب إليها الحظ الطيب عندما فضَّ بكارتَها. أما غلورينيا الجميلة، فمضت لممارسة الدعارة في مقاطعة الكاكاو وعُرفت لاحقاً باسم غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية التي يلهث وراءها الرجال. دخلت وعودُ البائع المتجول الزائفة في أذن غلورينيا وخرجت من الأذن الأخرى رغم شاربه الأنيق وشعره اللامع من تأثير "البريانطين" المفروق في المنتصف تبعاً للموضة السائدة آنذاك. كان هذا الرجل المتأنّق راقصاً بارعاً لكن غلورينيا لم تكن أقلّ براعة منه. فقد كانت تهوى رقصات الفالس والبولكا والمازوركا، لكن رقصتها المفضلة كانت المَشيش.

تعاظمَ اهتمام جميل منذ البداية عندما فاتحه إبراهيم، الذي شعر بسعادة غامرة لظهور المرشح المثالي، في الموضوع مباشرة. في ذلك المساء، كان ابنُ البلد لا يزال مركزَ اهتمام الجميع وموضوعَ أحاديثهم وتخميناتهم. كان رضوان مراد، الصديق المشترك الذي يتمتع بكفاءة عالية، قد اقترح اسمَ جميل وتأسف لغيابه. ماذا كان الهدف من اقتراحَ اسمه؟ لحلّ مشكلة تخص إبراهيم لكنها تهمّ جميلاً في الوقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسه. عبّر عن استعداده لطرح المشكلة إن كان ابنُ البلد مهتماً بالاستماع وتحديد وقت ومكان للقاء. قال إنه يريد أن يسمعها فوراً. إذ لم يكن لديه الوقت في اليوم التالي، لأنه سيكون مشغولاً تماماً بشراء البضاعة وشحنها. كان مزيج الفيرموث والكونياك قد حرّر لسانَ والد آدما المنكوب. استمع جميل بانتباه كبير لكنه لم يُبدِ أي حماسة للخطة المرسومة من باب الحذر والتعقّل.

قبل أن يغوص في تفاصيل هذه القصة الشائكة أعلن جميل أنه مسرور بالمكان الذي يعيش ويعمل فيه. لم تكن لديه أي نيّة لمغادرته. لم يحقق الثراء بعد لكن إذا تكاثرت البيوت في المنطقة، فسوف ينتعش مخزنه بالتأكيد من كثرة العربات العابرة. هل تعرف الكولونيل نوبيرتو دي فاريا؟ اسأله وسيؤكد لك ما أقوله. فإذا فكر في التخلّي عن حياة كلّفته الكثير من الفاقة والجهد والتضحية وكانت تعدُ بمستقبل مزدهر، من الضروري أن يكون العرضُ المقدّم جديراً بمثل هذه التضحية.

في مستهلّ المفاوضات، عرض عليه إبراهيم منصب المدير مع راتب شهري وجزء صغير من الأرباح. ثم صبّ له بعض الفيرموث. ضحك جميل في وجهه مطلقاً قهقهة لاذعة كتلك التي يلجأ إليها عندما يحدد الأسعار للمزارعين الصغار والعاملين والقتلة في مزرعة الكاكاو، تلك المشلوحة في أقاصي الأرض. وفي لحظة الخلاف تلك، فاقت غلوريا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذات المؤخرة الذهبية غضبَهما بسيل من المديح لتشيكو لوبيس، هذا الرجل المحترم الذي يتحدث مع النساء بلباقة كبيرة! على العكس من التركيين الوقحين الجاهلين اللذين تركاها وحدها. ما الذي دفع جميل إلى القدوم إلى الكباريه أصلاً؟ لكي يقضي وقتاً ممتعاً ويهرب من الأشياء التي كانت تزعجه؟ أم لكي يمضي الليل في هذه الثرثرة المتطاولة مع إبراهيم؟ بالنسبة إلى المعتوه الآخر، إبراهيم، فبدلاً من أن يسرق هذا الرجل منها كان عليه البحث عن امرأة ينام معها قبل أن يستأثر الجنرالات بالنساء الموجودات كلهنّ ويطلع صفر اليدين. كانت على حق. قدّم جميل يدَه إليها وقادها إلى حلبة الرقص. استغلّ إبراهيم الفرصة والنصيحة المقدمة إليه عندما رأى بولا الجولاء تقف وحيدة بالقرب من الأوركسترا. دعاها إلى رقصة البولكا. كان الاثنان، جميل وإبراهيم، يرقصان بنوع من اللامبالاة شاردَين في مخططاتهما.

عندما عادا إلى الطاولة اقترح إبراهيم إمكانية الشراكة شريطة أن تكون آدما جزءاً من الصفقة. فبتلك الطريقة، لن يكون لدى البنات الأخريات وأزواجهنّ أي سبب للتبرّم. البنات الأخريات؟ أي بنات؟ ما هي الخطط التي كان أولئك الأصهار الجدد يرسمونها؟ وبينما كانت غلورينيا تتلقى الدعوات من مالكي المزارع والبائعين المتجولين للرقص وترفض العروض لمغادرة الكباريه وترك التركي - هدّدها الكولونيل رايموندو باريتو بحملها بالقوة لكنها أقنعته بمهارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عالية بمرافقة امرأة أخرى -، كان ابنا البلد يتقدمان في مفاوضاتهما، بين جولات الفيرموث والكونياك المتعاقبة، تفصيلاً بتفصيل في محاولة للوصول إلى اتفاق يرضي الطرفين. ورغم أن إبراهيم كان ثملاً، فإنه سيطر على نفسه ولم يبح بالأسرار الأخيرة. فقد اعترف أن ابنته آدما لم تكن تصنّف بين جميلات الحي، لكنه لم يأتِ على ذكر شيء يتعلق بشخصيتها. لكل شيء وقته المناسب حتى عندما يكون المرء في عجلة من أمره.

"إن لم أكن مخطئاً، يا صديقي، أنت تريد أنت تتقاعد، فقد عملتَ كثيراً وتشعر بالتعب. وتريد أحداً يمكنك أن تثق فيه يكون قادراً على العمل مكانك في المخزن بما أن صهرك فشل في إدارته. ومن ناحية أخرى لديك ابنة عزباء وتريد تزويجها. وإذا جمعنا الحالتين معاً، نستنتج أن من يتزوج الفتاة يصبح شريكاً في المخزن...".

غادرا الكباريه في الصباح الباكر. كان إبراهيم، الذي يتمتع برأس خفيف، يتعثر في مشيته في الشارع. لم تفِ باولا الحولاء بوعدها بانتظارها له ومضت مع مالك مزرعة عصبيّ اسمه كلاوديو بورتوغال مهووس بالفتيات الحول.

"عِديني ولا تكذبي عليّ! إما أن تأتي معي وإلا سأوفر الوقت وأقتل هذين المعتوهين فوراً...". ثم هدّد بسحب مسدّسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عزّى مالك "مخزن الصفقات" نفسَه بهايدي المزكومة التي عوّضت عن خنّة صوتها بعدد من المهارات المتنوعة. كانت قد عملت في عاصمة المقاطعة في منزل تسكنه نساء فرنسيات وبولنديات وكان في مقدورها أن تفعل أي شيء كما تُملي عليها نزوتها.

في غرفة غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية، ألقى المصباحُ ضوءَه على المرآة المعلقة على الحائط وصورة القديس جورج. كانت رائحة نبات البتشولي العطرية تفوح من الأغطية والوسائد. وبينما كان ينتظر المرأة الغاضبة لتنظف نفسَها في المغسلة استعداداً لاستئناف لعبة العصفور والفخ، أخذ جميل يراجع الحقائقَ التي جمعها. قبل أن يمضي في الأمر أبعد من ذلك عليه أن يُعاينَ حالة المخزن الحقيقية ومسألة الشراكة الغامضة ويراقبَ البنات والأصهار ويتعرّف، أخيراً، إلى الفتاة القبيحة. كان مرسوماً له أن يحظى بزوجة جميلة ولكن في ذلك العراء حيث أسس تجارته واستقرّ كان المزارعون الصغار معتادين تناول الطعام الجيد يوماً والسيئ يوماً آخر، إذ كانوا يقتاتون أحياناً على الديدان والأعشاب بلا تأفّف أو تذمّر. ففي ذلك الطقس القاسي الذي تتمتع به مزارع الكاكاو، كانت البغال والأحصنة والحمير ترعى وتنمو كالمعتاد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

11

رغم انشغاله الشديد في اليوم التالي في تأمين البضائع ودفع أثمانها، وجدَ جميل بشارة الوقتَ الكافي لإلقاء نظرة على المخزن. أخذ انطباعاً جيداً من الجرد الذي تم بمساعدة إبراهيم لكنه احتفظ به لنفسه. لم يكن ليفاخرَ بانتصاراته أمام خصمه بل اكتفى بالإشارة إلى الجوانب السلبية مثل تأخر المدفوعات وهبوط المبيعات والإهمال وغياب الكفاءة.

كان آلفيو الشاب والملاك المرِح يشعران أنهما في شهر عسل أبدي ما خلق حالة رومانسية مدمّرة. لم تكن مدة الليل كافية للمضاجعة فكانا يستمران حتى الصباح. أضف إلى ذلك بكاء الطفل وتبديل الحفاضات واللهايات. لذلك لم يكن في مقدورهما التزام جدول معين. فقد كانا يفتحان أبواب المخزن ويغلقانها في الأوقات التي تناسبهما. كانا يعملان ويتغازلان خلف الطاولة دون أن يباليا بالحياطات وربّات البيوت اللواتي كنّ يأملنَ - مقابل بعض الأشياء الصغيرة التي يشترينها، مثل كشتُبان أو بعض الأزرار أو الدبابيس أو الأشرطة - في بعض الأحاديث والمجاملة.

كانَ زبائنُ سلوى الكثُر والمخلصون يتناقصون شيئاً فشيئاً مفضلين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التردّد على تجار مهتمين بالزبائن أكثر من اهتمامهم بعلاقاتهم الغرامية. ولم يكن مالك المخزن يهتمّ بعمل المخزن وسمعته. ففي الليلة السابقة في الكباريه، اعترف إبراهيم أنه كان بعيداً تماماً عن المخزن عندما كانت تديره زوجته. كانت سلوى تهتم بالالتزامات والمسؤوليات كافة وتحتفظ بسجلات الحسابات. تذكّر سلوى بعينين دامعتين. هل كانت هذه الدموع السريعة ضرباً من المكر أم تعبيراً عن حزن حقيقي وحنيناً لحياة سعيدة وبيت مريح؟

رغم تراجع "مخزن الصفقات" الواسع والكائن في أحد شوارع البلدة الرئيسية فإنه بدا لجميل هبةً من السماء. لم تكن الصعوبات الأخيرة قد أثرت كثيراً في السمعة الجيدة التي كان يتمتع بها المخزن في عالم التجارة خلال تلك السنوات السابقة كلها. فبالقليل من الجهد والكفاءة، يمكن للمخزن أن يستعيد سنواته الذهبية في وقت قياسي، كما يمكن تحويله إلى سوق مليء بالبضائع المتنوعة مثل الألبسة النسائية والرجالية والأحذية والقبعات والحمّالات والأربطة والأقواس والجوارب النسائية وربطات العنق. كان ذلك كله يتطلب إدارة جيدة وكفاءة عملية والعمل الجديّ، وهي فضائلُ مشهودة لجميل بشارة. كانت المشكلة تكمن في عدد البنات والأصهار. فإذا قرر الانضمام إلى هذه العائلة والمساهمة في أعمالها التجارية، سيكون عليه دراسة بنود العقد بتأنٍّ وجدية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما كانا يراجعان الوصولَ المالية، دخلت إلى المخزن فتاة لعوبة نحيلة من القسم السكني الخلفي ثم قبّلت يدَ إبراهيم - "بركاتك يا أبي" - وابتسمت لجميل بينما كانت عيناها الفضوليتان الثاقبتان تتفحّصانه من رأسه حتى أخمص قدميه كأنها تدرس معالمَ الذكورة فيه. هل يمكن أن تكون الفتاة القبيحة؟ مستحيل. لم يكن فيها شيء ينمّ عن القبح، بل على العكس تماماً.

"ابنتي سميرة"، قال إبراهيم. "المتزوجة بعامل التلغراف".

"جميل بشارة، في خدمتك".

"جميل بشارة؟ سمعت هذا الاسم من قبل...".

"إنه صديق صاحبي القديم رضوان".

"عمّو رضوان؟ آه، تذكرت الآن"، أشارت إلى جميل وقالت بخبث، "سلطان الكباريه، أليس كذلك؟"

ضحك جميل وشعر بشيء من الإحراج. "يلقبني بالسلطان. هذه إحدى مزحاته...".

استمرّت الفتاة الحيوية في تفحّصه ثم انفجرت في ضحكة مفاجئة تنمّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن السخرية دون أن تفصح عن السبب الذي دعاها إلى الضحك. كان العمّ رضوان يحكي القصص المسلية لأي شخص يحب الاستماع له، لكنه كان يحتفظ بحكاياته المثيرة عن الحياة البوهيمية لسميرة وبعض النساء الأخريات المقرّبات منه حيث يسهب في سرد أحداث وتفاصيلَ دقيقة لا تليق بالسيدات المتزوجات. كان العم رضوان الشيطانَ بذاته بصوته المخمليّ ونظراته البريئة وهو يكشف عن أدق التفاصيل. فلكي يفسّر شهرة جميل بين العاهرات كان عليه أن يشيرَ إلى إحدى ميزاته التشريحية: كان عضوه ضخماً، مثل ساق الطاولة. لا بدّ أن ذلك صحيح استناداً إلى بُنيته الجسدية هذه. أغلقت سميرة عينيها للحصول على صورة أكثر وضوحاً.

بالنسبة إلى العم رضوان، لم يكن هناك شيء يمنعه من سرد تلك القصص لتمضية الوقت وإضحاك الآخرين بما أنه لم تكن هناك رابطة دم تجمعه مع أفراد العائلة. كانت التوريات والتلميحات والنبرة المثيرة والمغازلات الإضافية كلها مقبولة. كانت مُتع سميرة، التي كانت تحلم بزواج يليق بالحكايات الخيالية، تتمحور حول المغازلة والإثارة الجسدية. هل يمكن لأي شيء أن يفوق متعة تبادل النظرات والابتسامات والكلمات الغامضة أو ذلك الشعور الخفي الناجم عن تلامس القدمين أو اليدين أو الشفتين عن طريق المصادفة أو على نحو متعمّد؟ كان البعض يصفها بالفجور وتركيب قرنين لإزميرالدينو صانع الألغاز، بينما أقسم آخرون أنها لا يمكن أن تذهب إلى هذا الحد في تصرفاتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تمضي في اللعبة، صحيح، لكنها تتوقف في اللحظة المناسبة وتقول بلهجة مخادعة إنها لم تقل تلك الأشياء أبداً.

انحنت أمام جميل لتلتقط كبة من الخيوط كاشفة عن انحناءة نهديها المكشوفين. عن قصد أو غير قصد، من يعرف؟ وقبل أن تغادر مرّرت رأسَ لسانها فوق شفتيها كأنهما جافتان. جافتان أو عطِشتان، يمكنك تأويل الأمر كما تشاء. فكر جميل أن أخت الزوجة ليست من الأقارب. استرجع الحسابات في ذهنه مرة ثانية وأضاف سميرة على لائحة أصول المخزن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

12

لولا وجود آدما، لكان العشاء مثالياً. كان عشاءً عربياً لذيذاً أعدّته سميرة بمساعدة الملاك فريدة التي قطفت بعض الأزهار وزيّنت بها المائدة، كأن الاثنتين لم تكونا كافيتين بسحرهما وأناقتهما. شعرتا بالأسف لغياب جميل المختبئ مع زوجها في مكان ما من المزرعة. وبالحديث عن الأزواج، كان زوج سميرة، عامل التلغراف، حاضراً ومتألقاً بطبيعته اللطيفة الطيبة وتمتّعه النّهِم بالكبّة والصفيحة. كانت علائم السعادة والرفاهية مجسّدة في رضوان مراد، الحكيم الذكي، وركبة سميرة اليمنى حيث كانت تجلس إلى يسار جميل. كانت عاجزة عن الجلوس بهدوء.

للأسف كانت هناك آدما أيضاً، صارمة ومتجهمة لكنها ضيفٌ لا يمكن الاستغناء عنه. ولكي يتمكن جميل من معاينتها والتحدث إليها، دعاه إبراهيم لتناول العشاء في مسكنهم العلويّ. لم يقل لبناته شيئاً عن الخطة التي كان ينفذها لأن ذلك سيكون ضرباً من الحماقة والطيش قبل أن يلتقي ابنُ البلد بالفتاة المعنية للزواج.

حالما وقعت عينا جميل على آدما أدرك هولَ التحدّي القادم. لم تكن الأقواس ولا الشرائط ولا الحِلى الظريفة التي يغصّ بها المخزن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتغيّر من الأمر شيئاً. إذ لا يمكن لأي شيء أن يعوّض معالمها الجسدية القبيحة. فعلى آدما أن تكون قديسة على مذبح لكي يفكر أيّ مواطن عاقل في الزواج بها. فليسبغ الله عليها تلك القداسة! ولكن في تلك الأمسية حصل جميل على دليل يؤكد أن الله لا يبالي بمثل هذه الأشياء، إذ إنه لم يسبغ عليها لو شيئاً من هذا الخراء كله.

تلقى جميل ضربة صاعقة عندما التقى بآدما. ولكن بما أنه اعتاد المفاجآت والكمائن وتقلبات الحياة لم يُسقط من حسابه في تلك اللحظة فكرة تحويل المخزن إلى أكبر سوق يجذب أكبرَ عدد منِ الزبائن في إيتابونا. كان يعتقد أنه سيلتقي عانساً مسنّة قبيحة ينضحُ وجهها بقدر من الطيبة الطبيعية يجعل منها امرأة لطيفة. قبيحة لكن لطيفة، تقوم على واجبات المنزل بجدّ ونشاط، رقيقة في سلوكها، ومتحدثة ساخرة، وبكلمات أخرى: عانس مسنّة لطيفة المعشر لا ينقصها سوى شيء من الجمال. لكنه التقى حيزبوناً، حيزبوناً بوجه ضفدع!

كانت آدما الجالسة قبالة جميل تسيطر على المائدة من أدناها إلى أقصاها معبّرة بنظراتها وإيماءاتها وصوتها عن استيائها من أي شيء يَشي بالفرح أو الضحك أو الرضى. فقد أدانت بقسوة لغزاً جديداً مضحكاً طرحه إزميرالدينو ليختبرَ ذكاء الضيوف.

"اسمعوا! اسمعوا! إنه سؤال في غاية السهولة. ما الفعل الذي تقوم به

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يومياً ويجعل منك شخصاً قذراً؟"

نظر حوله بنشوة المنتصر ثم قدّم الجواب من تلقاء نفسه: "السير في الشارع. فهو يجعل منك شخصاً متسكعاً، عاهرة. ها ها ها!"

رائع، رائع، لغزٌ لطيف. صفقت الملاك بيديها وكلها حماسة لاختراع صهرها العبقري. "غير لائق!" هدرَت آدما. كانت القبلات التي يتبادلها آلفيو وفريدة على مائدة الطعام تفتقد إلى اللياقة، وكذلك كان تجشّؤ إبراهيم بعد أن ملأ معدته. لم تتجرأ على مقاطعة رضوان مراد لكنها تجهّمت وهي تستمع له يُلقي القصائد العربية التي تتحدث عن النساء والخمر: قذارة! كانت منيعة على الفرح الصاخب والمتعة والسعادة. حدث أن انحنت سميرة أمام جميل لتتمكن من صبّ القهوة فلم يتمكن جارُها من إبعاد عينيه عن نحرها المكشوف. كان هذا كافياً لكي تنظر آدما إلى أختها بعينين يقدحان شرراً، وكذلك إلى الضيف المقيت وصانع الألغاز الأحمق. ارتعدت فصائلُ جميل.

تبعت نظرة القرف والكراهية هذه جميلاً إلى الخارج عندما استجمع إبراهيم شجاعتَه وسأل ضيفَه إبراهيم بعد الانتهاء من العشاء: "هل ترغب في التمشي قليلاً حول الساحة لكي نهضمَ بعض الطعام الذي تناولناه؟"

باستثناء آلفيو الذي كان لا يزال في شهر العسل - كما ذكرنا -

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإزميرالدينو الذي هَمّ بالذهاب لكنه توقف عندما سألته سميرة: "ومن سيعيدني إلى البيت؟" مخاطبة زوجَها دون أن تزيح عينيها الشيطانيتين عن جميل، التقط الآخرون قبعاتهم وتوجهوا إلى بيت الدعارة. تساءل رضوان مراد هل لا يزال هناك أي نوع من الخلاص بالنسبة إلى آدما. ربما تأخر الوقت كثيراً ولم يعُد في مقدور الشاب أديب، بمراهقته الخرقاء، أو جميل العملاق، بأداته الضخمة، أن ينقذاها من لعنة عذريّتها المتكلّسة ويعلّماها حبَّ الحياة في السرير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

13

توقف إبراهيم في منتصف كلامه. حاول القيام عن الكرسي لكنه وقع تحت الطاولة فسحبوه بمساعدة النُّدل. تم تأجيل الاجتماع وقرر جميل أن يأخذ ابنَ بلده إلى باب منزله، إذ لن يتمكن من الوصول إلى المنزل بمفرده لأن ساقيه لم تكن قادرة على حمله.

كان إبراهيم حزيناً قضى معظم الليلة يفكر في زوجته الراحلة. وقد تأثرت العاهرات اللواتي تجمّعنَ حول الطاولة للاستماع له بهذا القدر من الحب الذي يكنّه لزوجته الميتة. كان بعضهنّ يعرف سلوى عندما كانت تدير "مخزن الصفقات" إذ كنّ يذهبن لشراء بعض الزينة لزركشة أثوابهنّ والأمشاط والخواتم الجميلة. لم تكن سلوى - الزوجة والمالكة الثرية والمرأة الجميلة - تميّز بين زبوناتها، بل تعامل الجميع بالقدر نفسه من اللباقة والاحترام، سواء كنّ أمّهات أو عاهرات.

شاركنَ إبراهيم في مشاعره وتذكّرنَ أنه كان زوجاً مثالياً في حياة زوجته... مثالاً مريعاً في نظرِ أرباب العائلات الأخرى. لم يكن يتردد على الكباريه أو يقضي لياليه في بيوت الدعارة، وإن حدث وذهب إلى أماكن كهذه، فلكي تساعده على النسيان، لكنه لم يتمكن من ذلك. ففي مناسبات العشاء التي تُقام في المنزل - التي كانت

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرة في حياتها ثم صارت نادرة بعد موتها - أصبح غيابُها ثقيلاً على نحو لا يُحتمل. كانت باولا الحولاء، القارئة العاطفية للروايات المسلسلة التي تصدر أيام الخميس، تنفجر في البكاء. إذ لم يكن هذا الحب الذي يجمع بين إبراهيم وسلوى موجوداً إلا بين بول وفيرجيني، ولا يكاد حتى!

أدرك جميل أن الرجل الأرملَ لم يكن يتمتع بشيء من الحكمة وأنه لا يتعدّى كونه رجلاً طيباً. كان يستمع لنواحه بتعاطف صامت وهو يتأهب لأخذه إلى منزله. كان رضوان مراد قد غادر لتأدية واجباته على طاولة البوكر لكن كان في مقدور جميل الاعتماد على مساعدة غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية وباولا الحولاء. قاد الثلاثة إبراهيم المترنّحَ خارج مخزنه.

على صوت وقع الخطوات، انفتحَ غلَقٌ في الطابق الثاني. حطمَت عاصفة من الشتائم صمتَ الليل. كانت آدما الشريرة الواقفة في النافذة تقذف اللعنات والشتائم والاتهامات والتهديدات على أبيها، القوريني الشبِق، والمجدلانيّات البغايا. كان منظراً جديراً بالمشاهدة. كان رضوان مراد قد رأى مشهداً مماثلاً مرة واحدة فقط وكان عليه البحث عن مصطلحات غريبة لتصنيفه: كاتيليناري، زنبوريّ، سوداوي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تراجعت العاهرتان وأخذ إبراهيم يبكي على كتف جميل. استمرت آدما في إطلاق شتائمها بغضب لا يرتوي موقظة الحيّ بأكمله. حاول إبراهيم استعادة توازنه واتجه نحو بوابات كالفَري. وقبل أن يعبر المدخل رفع ذراعيه وأخذ يلوّح بهما كما يفعل الغريق. لم تتأثر آدما بذلك ولم تتوقف عن الزعيق. أشارت إلى جميل وهدرَت كلماتها الأخيرة.

حثَّ التركيّ خطاه ولحق برفيقتي لهوِهِ اللتين كانتا تهربان من المكان. علّقت باولا الحولاء التي شعرت بالإهانة قائلة: "لعنة الله على هذه الابنة! إبراهيم رجل وديع. لو أنه جَلد تلك الكلبة، لكانت توقفت عن ذلك النباح في الحال".

بلطفها المعتاد، قدّمت غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية بديلاً أفضل. "إن ما تحتاج إليه تلك المسكينة هو قضيبٌ كبير".

فكر جميل في الأمر ووجد أن الاثنتين مُحقّتان في ما قالتاه. فلكي تشفى آدما، التي تعاني من مرض خطير مستعصٍ، فهي بحاجة إلى الدواءين معاً، القضيب والسّوط، وبجرعات كبيرة. وقد صدّقَ بذلك على كلام الشاب أديب دون أن يعرف: لكي تروّض المرأة عليك بالرّبت والصفع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

14

طوال شهرين بديا دهراً عاش التركي جميل بشارة المشكلة حتى الثمالة وهو يفكر في أدق التفاصيل ويحلّلها من الزوايا كافة. في المحطة حيث كان سيستقلّ القطار إلى موتونز، قال لإبراهيم: "أنا بحاجة إلى وقت للتفكير قبل أن أتخذ قراري. وعندما أعود سأعطيك جوابي النهائي. في هذه الأثناء، اعتنِ بالمخزن وامسك زمام الأمور في البيت".

في براري إيتاغواسو، حيث كان الشيطان يغوي جميلاً ليلَ نهار، بدا عرضُ إبراهيم أفضل من ذي قبل، وقد تراءى له أنه جذاب ومشجع. بدا الله محايداً وغير معنيّ بما يحدث. فقد تخلّى عن جميل في تلك اللحظة الحاسمة وترك الأمر في يده.

من القرية البائسة التي كان يكدح فيها، بدت مدينة إيتابونا - المليئة بالحيوية والنشاط، بتجارتها وكنيستها ومعبدها و"فندق لوردز" والكباريه والبارات وبيوت نساء الليل وشوارعها الحجرية والحركة الدائمة في المحطة، حيث تصل قطارات المسافرين وتغادر يومياً، والمكائد السياسية والهيمنة على الأراضي، والبنادق المأجورة، وعربات البغال التي تُفرغ حمولتَها في مخازن شركات التصدير الضخمة - أشبه بالعاصمة. في إيتابونا، يعيش المرء، أما في إيتاغواسو، فإنه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعاني.

كانت غلورينيا ذات المؤخرة الذهبية تثيره كالعادة وتقلق نومَه وتقدّم إليه نفسَها عارية ومثيرة للشهوة وبعيدة المنال. وسوف تنضمّ إليها امرأة مثيرة أخرى تشكل إغواءً أكثر حساسية، سيدة متزوجة اسمها سميرة جعفر إزميرالدينو. سميرة، بركبتها الطرية وثدييها المكتنزين اللذين تشتهي أن تمسكهما وتعصرهما بيديك، ونظرتها الخبيرة المتعطشة، ولسانها المبلول فوق شفتين جافتين، سميرة وهي تهمس: "تعال هنا، تعال هنا الآن، أنا بانتظارك، فأخت الزوجة ليست من أقارب الدمّ، لا". أيٌّ من الاثنتين كانت أشهى، أكثر خبثاً؟ كان هناك خطآن يضلّلانه: العاهرة في الماخور والمرأة الأخرى أكثر وأكثر.

لكن ما كان يشغل فكرَه في الدرجة الأولى هو إنعاش المخزن خلال وقت قصير وتحويله فوراً إلى سوق مليء بالبضائع الجيدة، سوق يجذب عدداً كبيراً من الزبائن ويحقق أرباحاً ضخمة. فالما يتم تنصيبه شيخاً للقبيلة سوف يعمل جميل على إرساء القوانين الناظمة لهذا العمل. تخيّل نفسَه وهو يدير المخزن تساعده في ذلك شقيقتا زوجته، سميرة وفريدة. فعوضاً عن البقاء في المنزل ولعق المصّاصات أو الثرثرة مع الناس في المحطة، يمكن لسميرة، الشابة والحيوية، أن تقدّم مساعدة كبيرة في المخزن بأسلوبها اللطيف واللبق. وبالطريقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسها، سيكون وجود فريدة جميلاً وجذاباً للزبائن، ما سيزيد عدد الزبائن الذكور حالما يتحوّل المخزن إلى سوق. أما آلفيو اللطيف، فيمكنه الاستمرار في عمله المفضل في مخزن "الخردوات الإنكليزية" وأن يتدرّج من عامل متمرّن إلى بائع متجول، ومن بائع متجول إلى خيّاط معلّم، فلا يعود يشكل أي تهديد لأموال المخزن.

من المفيد تكرار ما يعرفه الجميع جيداً: أخت الزوجة ليست من أقارب الدم، لكن الروابط العائلية تسمح بعلاقة حميمة تُدعى الأخوية. كانت آفاق جميل تتوسع أكثر فأكثر: سلطان مع حريمه. أجل، هكذا يكون العَيشُ الحق.

درَس جميل بعناية فائقة فقرات العقد الذي سيوقع في مكتب الكاتب بالعدل. شراكة مع آدما في ميراثها من أمّها، وشراكة مع إبراهيم بصفته مدير المخزن. وبما أن إبراهيم سيكرّس وقتَه لمتعه الخاصة، سوف يكون نوعاً من الشريك الصامت، ما يتيح لجميل السيطرة الكاملة والحق في أن يفعل ما يشاء.

فكر في شراء حصص جميلة وزوجها رانولفو منذ البداية. إذ إن طموح أي مالك لمزرعة كاكاو في الحياة ينحصر في شراء المزيد من الأراضي الصالحة للزراعة من أجل توسيع أملاكه وأعماله. فهو ليس مهتماً بالمخازن والأعمال التجارية. وفي ما بعد سيدرس جميل ما يمكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعله بخصوص الحصص التي تملكها شقيقتا زوجته. سوف يتوقف الأمر على لطفهما ولطف زوجيهما. كانت التعويضات التي سيحصل عليها من هذا المشروع تتكاثر شيئاً فشيئاً وتحتلّ أفكارَه يوماً بعد يوم.

حتى قُبح آدما، هذه الحيزبون الشريرة، سمكة القدّ الباردة، بدا كأنه يتلاشى في المسافة التي تفصله عنها. لم يكن في مقدور الشيطان نفسه أن يُخفي تلك الحقيقة أو يفعل هذا كله. أما هو، فنجح في تحييد التفاصيل أو تشويشها، فقد تمكن من تحويل شاربها الصغير إلى نوع من الزغب الكثيف وفمها المزموم البغيض إلى علامة على النُبل والوقار. ففي نهاية المطاف، سبق لجميل أن ضاجع نساءً أكثر قبحاً وإثارة للاشمئزاز من دون أن يمرضَ، مجازفاً بالتقاط بعض الأمراض الجنسية المعدية.

Telegram:@mbooks90

إضافة إلى هذا كله علينا أنْ نتذكر أنّ بعض النساء القبيحات يتمتّعن بجاذبية لا تقاوَم. لديهنّ أسرارهنّ الغامضة، كما قال رضوان مراد في إحدى المرات عندما علّق جميل بذهول على تهوّر سليم حداد، وهو مليونير من أبناء البلد يملك مزارعَ يقارب محصولُها عشرين ألف طنّ. كان متزوجاً بابنة عمه الجميلة والشهية ياسمينة، وقد ضُبط مع سيلفينيا، أرخص عاهرة في روا دو أمبوزيرو. كانت عاهرة شوارع لها وجه قبيح ومؤخرة قذرة وثديان متهدّلان. وقد بذّرَ ثروة طائلة عليها. كيف يمكن للمرء أن يفسّرَ شيئاً عبثياً كهذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"لديها أسرارها الغامضة يا جميل. يمكن للمرأة أن تكون قبيحة، على أسوأ هيئة، ولكن إن كان فُمها السفليّ جديراً بالتقبيل فإنه يشبه ماسة نقيّة، شيئاً فريداً. بيني وبينك، أضمن لك ذلك. لا أعرف أي امرأة تضاهي سيلفيانا في فمها السفلي..."، فرقع لسانَه بنوع من الاشتياق والشهوة.

من يدري، ربما تكون آدما واحدة من أولئك اللواتي يملكنَ فرجاً رائعاً جديراً بالمَصّ والتقبيل. لم يصدق جميل ذلك لكنه لم يكن مستحيلاً في الوقت نفسه. فهنا في إيتاغواسو مثال على هذه الحالة، لورينيا الملقبة بالساحرة. ساحرة تبعث الخوف فيك. ولكن عندما تطفئ الأضواء ويعمّ الظلام وتبدأ التفكير في امرأة أخرى، لا يمكن لامرأة أن تضاهيها، بفرجها الضيق كفرج العذراء، وفم سفليّ يرتعش عندما ترتشفه.

كانت عملية تلطيف شخصية آدما أكثر صعوبة. لم يتمكن جميل من نسيان حضورها البغيض على العشاء ولا بؤس إبراهيم الفجائعي. تخيّل نفسَه عائداً من الكباريه عند منتصف الليل أو من بيت أفونسينا في الصباح الباكر. ليس على الزوج أن يلتزم أوقاتاً معينة للعودة أو يقدّم تبريرات لتأخره. سيجد آدما واقفة في النافذة بانتظاره والغضب يتآكلها وسوف توقظ الجيران بشتائمها وزعيقها الحاد. فإذا حاولت الهيمنة عليه كما فعلت مع إبراهيم، هل سيكون القضيب والسوط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كافيين؟ لم يكن متأكداً من ذلك.

بعد أن تخلى الله عنه وتركه لإغواءات الشيطان قضى شهرين يخوض معركته بمفرده من دون أن يصل إلى قرار. ولكن كلَّ لحظة كان الشيطان الرجيم يُحكم قبضته أكثر فأكثر على روح جميل. قبل أن يغادر موتونز، حيث استقل القطار المتوجه إلى إيتابونا، اعتقد جميل أن العرض الذي قدّمه إبراهيم لا يمكن رفضه: تجارة جيدة، وثروة تلوح في الأفق، وامرأة تتمتع بخصائل رائعة. كان يفكر في سميرة وليس آدما.

لا تستحق آدما سوى القليل من المضاجعة والكثير من التأديب بالسوط. إلا إذا كانت هذه الحيزبون (التي كانت لها أسرارها الغامضة أيضاً) تمتلك فرجاً مميزاً جديراً بالمَصّ والتقبيل. "من المحتمل جداً، بل من المؤكد"، كان الشيطان يهمس خلفه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

15

هل يمكن لله ونبيّه محمد أن يتخليا عن ابنهما جميل بشارة ويتجاهلا عهد الإيمان والعون الموجود بينهم ولا يحذرانه من مخاطر المغامرة التي سيُقدم عليها؟ من المرجح أنهما حاولا تحذيره لكن الرجل العنيد رفض الإصغاء. "كنت أعمى وأصمَّ"، اعترف جميل نفسُه لرضوان مراد. "استسلمتُ لإغواء الذهب واللحم. كان الشيطان يسكن في قلبي".

كما يقول المثلُ المأثور، يكتب الله بوضوح بخطّ ملتوٍ ولكي ينفذ خططَه يلجأ إلى طرق غريبة ويأتي بشخصيات لا يتوقعها أحد. فبينما كان الشيطان القابع في إيتاغواسو يكرس وقته كله لإغواء جميل، كان الله يناور في إيتابونا لينقذ روحَه ويصونَ مستقبلَ ابنه المكرَّس.

كما اتضح لاحقاً، وبينما كان يراجع مع جميل تطورات هذه المعركة، اكتشف رضوان - الذي كان يتابعها بتفاصيلها الدقيقة خاصة عندما علمَ بدور الشيطان فيها عبر الأحلام الداعرة والشهوات الخبيثة والوعود الكبيرة الزائفة - أن إستراتيجية الله وتكتيكاته أقوى وأشد أثراً، ليس عبر مواجهة العدو بحقيقة راسخة فقط بل أيضاً من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريقة التي فعل بها ذلك: عوضاً عن أي دراسة ذاتية أو أفعال غرائبية جديرة بتقاليد **العهد القديم**، حقّق ذلك على النحو الكامل. بدأ عرضاً جميلاً بحادثة القطيع الهائج الرومانسية البطولية، الأولى في سلسلة من الحيَل المشهدية العظيمة.

هاجَ رتلُ الحمير من دون أي سبب واضح قُبيل وصولها إلى مخازن "كونتز وشركاه"، وهي شركة سويسرية لتصدير الكاكاو. انطلقت الحيوانات مسعورة وهي تضرط وترفس الناس وسط الزحام. تساقطت الأكياس من الصناديق الخشبية المثبتة على ظهورها وتناثرت حبّات الكاكاو في المجارير وفرّ الناس في الاتجاهات كلها في جوٍّ محموم أقربَ إلى نهاية العالم.

في تلك اللحظة بالذات، كانت العانس آدما قد خرجت للتوّ لتجد نفسها وسط هذه المعمعة وهي في طريق عودتها من منزل سميرة في محطة لارغو بعد أن حوّلت حياة أختها إلى جحيم. حتى أنها تناولت جميل بشارة بألفاظ مقذعة لمّا انبرت سميرة للدفاع عنه وعن أبيها؛ كان الأول عازباً والثاني أرملَ ومن حقهما التردّد على بيوت الدعارة. اشتدّ النزاع بين الأختين وكانت آدما على وشك الإغماء عندما اتهمتها أختها اللطيفة بأنها حانقة لأنها لم تجد أحداً يرغب فيها. لم يكن لشيء أن يجرحها في صميم كبريائها أكثر من ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت قادمة وسط الشارع، حزينة مطأطئة الرأس، عندما سمعت الصراخ والنهيق ورأت أمامها الحيوانات المسعورة التي ستسحقها بحوافرها حتى الموت. رغم كل شيء، لم تكن آدما ترغب في الموت. لم تجد القوة اللازمة للهرب فأطلقت عويلاً حاداً وأغمضت عينيها وانتظرت الضربة، السقوط، وقعَ الحوافر، النهاية. شعرت وهي تفقد وعيَها أن يداً أمسكتها ورفعتها في الهواء.

عندما فتحت عينيها كان في مقدورها أن تشهدَ بداية الحياة الأبدية والفردوسَ الذي كانت تستحقه. كان يقف أمامها ملاكٌ بَهيّ، ينحني فوقها مبتسماً. لم تكن في الفردوس؛ كانت في مخزن تجاري. كان أحدٌ ما يمسك بكأس بالقرب من فمها بينما كان الماء يسيل من طرفي شفتيها. كان لا يزال في وسعها أن تسمع أصداء الهرج وصرخات سائقي عربات الحمير. لم يكن للملاك أجنحة لكنه استمرّ بالتحديق فيها. كان رجلٌ بدينٌ، عرِقٌ وشاحب وأشعث، يشرح لها ما حدث بالضبط.

"نجوتِ بأعجوبة. لقد نجوتِ بأعجوبة. لقد ولِدتِ من جديد. هذا الشاب جازف بحياته؛ إنه بطل". كان يشير إلى الملاك وسط نظرات إعجاب الناس الذين تجمهروا عند باب المخزن.

نظرت آدما إلى البطل. كان قد فقد أصله السماوي لكنه بدا شاباً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقوياً والابتسامة لا تزال مرتسمة على وجهه. مدّ يدَه إليها بتهذيب ليساعدها في النهوض من الكرسي حيث أجلسوها ثم قال: "لنذهب يا آدما! سآخذك إلى البيت".

شعرت آدما بالضعف والارتباك ولم تكن قد استوعبت بعد ما حدث بالضبط. كانت لا تزال تحت تأثير الصدمة. من أين يعرفها هذا الأمير؟ وكيف عرف اسمَها؟ قبلت اليدَ الممدودة نحوها لكنها لم تتمكن من التوازن عندما وقفت فحضنها وأمسك بذراعها.

"اتكئي على ذراعي. دعينا نذهب يا حلوتي".

يا حلوتي! يا له من اسم جميل. يا له من اسم لطيف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

16

للمرة الأولى في حياتها، وجدت آدما نفسَها وهي تمشي في الشارع ممسكة بذراع رجل. كان هذا الرجل قد ناداها يا حلوتي، وكان يبتسم لها بطريقة مترعة بالمعاني.

"ألا تذكرينني؟"

كانت ترغب في أن تجيب بنعم، بأنها تذكرته، وكيف لها أن تنساه. ولكن للأسف لم تستطع أن تتذكر أين رأته من قبل. لم تره في حياتها كلها أبداً، ولا في أي حال من الأحوال. يا للغرابة. لم تره أبداً. شعرت بالارتباك وابتسمت وهو ينعش ذاكرتها.

"كنت أعمل في 'مخزن الأزياء' الذي يملكه أخي عزيز. ألا تتذكرين؟ كنت أراقبك وأشتهيكِ..."

كان يراقب ويشتهي؟ لم تكن على علم بشيء من هذا.

اجتاحَ الدّفءُ صدرَها النحيل. لم تكن تدرك أن هناك رجالاً يتجسسون عليها، رجالاً شباناً، أمراءَ ساحرين، ملائكة من السماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يرغبون فيها. ثم حدث أروع شيء على الإطلاق عندما اقتربا من المنزل.

"كنتُ أمرّ من هنا كل يوم لكي ألمحكِ وأنت تقفين في النافذة لكنك لم تنتبهي إليّ أبداً".

توقفت آدما في مكانها راغبة في أن يكرر أنه كان يمرّ من هناك. لكي يراها فقط؟ لم تستطع تصديق أذنيها! كانت لتدفع أي شيء لو أن سميرة هناك الآن لترى وتسمع وتموت من الغيرة. قالت بشيء من الصعوبة: "علينا أن ندخل عبر الشارع الخلفي. فقد خرجتُ من البوابة المطلة على الساحة".

استدارا. كان المفتاح يرتعش في يد آدما. أخذه الأمير من يدها وهو لا يزال يبتسم وفتح بابَ الغشاق القديم. دخلت العانس وعيناها مطرقتان في الأرض. لم تكن تمتلك الشجاعة للنظر إلى الرجل الذي أنقذها من الموت، الذي أمسك بذراعها وقال لها أشياءَ لم تسمعها من قبل. يمكن لهذا كله أن يكون مجرّد رؤيا على حافة التلاشي.

"لا أعرف كيف أشكرك، فقد أنقذت حياتي!"

كانت تتكلم في الساحة بصوت منخفض. كانت نهاية السحر. ها هو واقف هناك وسوف يختفي إلى الأبد. كانت الطريق إلى السعادة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قصيرة. وقد استرقت لمحة قصيرة على الفردوس. وكانت عائدة إلى الجحيم مرة أخرى.

"لا تعرفين أيتها الجميلة؟" قال أديب بارود... الملاك، البطل، الأمير، الجمل العربي الأخرق، بابتسامة أكبر الآن بنيات طيبة أو شريرة، تبعاً لما يراه المرء. غمز وأعلن قائلاً: "حسناً إذاً، سوف أريكِ في الحال يا جميلتي". كرر عبارة "يا جميلتي" وأضاف وهو على استعداد لأي شيء، "يا حلوتي المثيرة الصغيرة!"

دخل عبر البوابة ثم أغلقها بضربة من يده. احتضن آدما من خصرها بإحدى يديه وأمسك برأسها باليد الأخرى بينما انحلّت ربطة شعرها. فقدت صوتَها وقدرتها على الحركة. قبّلها أديب قبلة تعلّمها من بروكوبيا، زوجة القاضي المدني، ثم أمطرها بعاصفة من القبل والألسنة والأسنان تركت آثارَها على فمها وروحها إلى الأبد. حاولت الإفلات لكنه شدّها إليه بقوة. ارتخى جسدُ آدما أخيراً وذابت بين ذراعي أديب. كان ذلك كثيراً ليوم واحد. أسندها على الحائط ومال عليها. جالَ بيديه إلى الأعلى والأسفل فباغتته مفاجأة سارة. كان للوح الكوي ثديان، ولم يكونا رخوين أو متهدّلين.

لا رخوين ولا متهدّلين، نعمة أخرى من نِعَم الله في مساء المعجزات ذاك. لم يسقط أحدٌ تحت حوافر الحيوانات، والتقطت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حبات الكاكاو حبّة حبّة. لم يحصل أي أذىً يستحق الذكر. أما عن وجود أديب في المكان الذي حدث فيه المشهد الدرامي، فلم يكن نتيجة أي مصادفة خارقة. منذ حديثه مع رضوان مراد، كان صبيُّ البار يبحث عن الفرصة المناسبة للتحدث مع آدما حول المسائل الغرامية. وعندما رآها راجعة من المحطة طلب من سانتي إذناً بالمغادرة ولحق بها عن قرب. أما الباقي، فكان على الله أن يدبّرَه، وقد فعل ذلك بشيء من العظمة والمهارة والسرعة كما يشهد الجميع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

17

"اليوم المشروبات على حسابي"، أعلن إبراهيم جعفر وطلب جولة من شراب اليانسون.

جلس في الكرسي الذي غادره الصيدلاني نابولياو سابويا، البطل المحليّ الوحيد القادر على مقارعة اللبناني-السوري في لعبة النرد.

همس في أذن رضوان مراد بصوت خفيض: "البارحة احتفلتُ بمرور أسبوعين يا صديقي القديم".

"أسبوعان يا إبراهيم؟ أسبوعان كاملان؟"

Telegram:@mbooks90

نعم، أسبوعان كاملان مضيا من دون أن تكيلَ آدما الشتائمَ واللعنات وهي تنتظر عودة أبيها قبيل الفجر وتملأ الحيّ بصراخها المعتاد. شعر بعض الجيران أن هناك شيئاً غريباً يحدث. لم تبدُ آدما على طبيعتها أبداً. حتى أن إبراهيم أقسمَ أنه رآها تبتسم أكثر من مرة في الأيام القليلة الأخيرة. أسبوعان من السكينة التامة، من دون أي سحر يقضّ مضجعه في اللحظة الحرجة التي يُفرغ فيها حِملَه ويمنعه من ممارسة ذكورته بتوق وكفاءة... لقد استعاد فحولتَه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"قل لي يا صديقي القديم. هل لديك أي تفسير لذلك؟"

لم يتمكن رضوان من إيجاد أي تفسير فوريّ لما حدث، لكنه أخذ يُراكم الشكوك الناجمة عن التصرفات الغريبة للشاب أديب الذي كان يحوم حول طاولته باستمرار. فكلما التقت أعينهما، كان النادلُ يبتسم ويغمز له من دون أي سبب واضح وبطريقة تَشي بنوع من التواطؤ. وفي إحدى المرات، همس في أذنه وهو يفرك يديه، "كل شيء يسير على ما يرام، يا بروفيسور!" كانت الشكوك تتنامى حول علاقة أديب بالتحوّل الغريب الذي طرأ على آدما.

مرّت الأسابيع دون أي أحداث مميزة باستثناء إطلاق للنار في كاغا-فومو ذهب ضحيته ثلاثة رجال وامرأتان، مجرد حادث اعتيادي بين رجال مسلحين في أحد بيوت الدعارة، بالإضافة إلى جريمة قتل الدكتور فيليسيو دي كارفاخو، محامي الأطراف المناوئة للكولونيل أميلكار تيليس في صفقة بيدرا برانكا، التي تندرج تحت تصفية الحسابات القديمة. سجلٌّ متواضع لشهر ونصف؛ هل يدلّل هذا على تراجع الصخب في إيتابونا؟ لكن في إحدى الأمسيات المتأخرة، وبعد الانتهاء من لعبة النرد، وعندما بقي رضوان مراد بمفرده في البار يحتسي الكأسَ الأخير من اليانسون المزيف اللذيذ الذي أعدّته عائلة مهنّا، وهو أفضل من الأنواع المستوردة، جاء إليه أديب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"هل تسمح لي، يا بروفيسور؟ هل تذكر الحديث الذي دار بيننا قبل بضعة أيام؟"

"حديث؟ أي حديث؟" كان رضوان يتظاهر بالبراءة.

"عن الزواج، إلى آخره. أنت قلت لي يا بروفيسور..."

"الآن تذكرت".

"أنا يتيمُ الوالدين كما تعرف. أتمنى، يا بروفيسور، أن تكلمَ السيد إبراهيم كأنك في مقام والدي. أريد أن أتزوج ابنتَه".

"تريد أن تتزوج آدما؟" كتمَ تعبيراً ينمّ عن المفاجأة. بقي صامتاً لحظة ونظر إلى أديب بدهشة واضحة.

"وماذا عن آدما؟ هل تعرف نياتك؟"

"هناك علاقة جنسية بيننا منذ شهرين".

"علاقة جنسية؟ كيف؟ هي من النافذة وأنت من الشارع؟ تتبادلان الرسائل الغرامية؟"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"رسائل غرامية، يا بروفيسور؟ أنا لا أفعل مثل هذه الأشياء! نمارس الحب في الساحة الخلفية. فعندما أغادر البار هنا في العاشرة تكون بانتظاري. تترك البوابة مفتوحة". فرقع لسانَه بصوت بذيء ينمّ عن الرضى، صوت شبيه بذلك الذي أصدره قبل أشهر عندما تذكر بروكوبيا، زوجة القاضي المدني.

"هل تعني...؟"

"أعني ما تفكر فيه تماماً، يا بروفيسور. تعرف كيف تجري الأمور. يبدأ الموضوع باللهو والتسلية، لمسة هنا، وربتة هناك، وعندما تدرك ما يحدث يكون الموضوع قد انتهى وتمّ... ثم يحصل اللقاء المحتوم".

يا له من شخص مذهل! ففي محاولته لتوضيح الأمور له، ربما ترك رضوان مشوّشاً يتخبط في العتمة؛ كما أقسم على ذلك بنفسه.

"ربما لا يمكنك أن تتخيّل ذلك، يا بروفيسور، لكنها لعنة مزوّقة". ابتسمَ بسعادة ورضى. أصيب رضوان مراد بالذهول.

"أخبِر السيد إبراهيم أن في مقدوره أن يسلّمني إدارة المخزن وسوف أحوّله إلى سوق من الدرجة الأولى".

ممن سمعَ رضوان تأكيداً مشابهاً لهذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"سوف أقوم بذلك"، قال وقد قبلَ المهمة الموكلة إليه. ثم أضاف معترفاً بأهمية النبأ: "هذا الطلب يستدعي الاحتفال والخطابات. لا تحدث خطوبة كهذه كل يوم، خطوبة..." بحث عن الصفة الملائمة. "ميمونة".

فكر قليلاً ثم استدار نحو أديب. "لعنة مزوّقة! هل هذا ما قلتَه يا ابني أديب؟"

"لعنة مزوّقة!" قال الشاب مؤكداً.

احتفظ رضوان في ذاكرته بالتعبير الذي لم يكن مألوفاً له. غرقَ في تفاصيل الحكاية التي سمعها. نظر نحو السماء التي كانت تتفجّر لهباً فوق أطراف إيتابونا النائية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

18

حين مرّ جميل بشارة بالقرب من "مخزن الصفقات" شعر بالاستياء من منظر الأبواب الموصدة في ذلك الوقت المبكر من المساء عندما كانت الحركة التجارية لا تزال نشطة. بدا الأمر عبثياً، شيئاً يستدعي إجراءات عاجلة. سوف يهتم بالأمر على جناح السرعة ويضع حداً لهذه المهزلة.

اتجه نحو المدخل المؤدي إلى سكن العائلة وأخذ يصعد الدرج. تناهت إلى أسماعه أصواتٌ قادمة من غرفة الجلوس. وعندما وصل إلى أعلى الدرج وجد البابَ مفتوحاً على مصراعيه. اختلس نظرة إلى الداخل قبل أن يصفق بيديه ويطلب الإذنَ بالدخول. أدرك مما رآه أن هناك مراسمَ جديّة تجري بحضور عدد كبير من الأشخاص. من يدري، ربما تكون مراسم عزاء أو شيئاً من هذا القبيل. هل مات أحد أفراد العائلة؟ ربما يكون إبراهيم المسكين قد انتحر بعد أن عجز عن تحمّلِ الأزمة التي عصفت بتجارته وعائلته. شيء كهذا فقط يمكن أن يفسّرَ إغلاق المخزن وملابس الأحد الداكنة للشخصين المجهولين اللذين يقفان عند عتبة البهو. تعرّف إلى رضوان مراد الذي كان يُلقي كلمة بالعربية، رثاءً لصديقه ربما. اعتراه الحزن والندم لكنه سرعان ما استبعدَ فكرة العزاء عندما سمع ضحكة سميرة الخلاعية الصافية التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت أحد الأسباب الرئيسية لمجيئه وقبول العرض الذي قُدِّمَ إليه.

لكن الشخص الذي كان يعبّر عن قبوله هو سيّد البيت، زعيم القبيلة، إبراهيم جعفر، الذي كانت تتبدّى عليه معالمُ الصحة والرضى والغبطة. كان يقدّم موافقته بصفته أباً على طلبِ رضوان مراد الذي كان قد عبّر عنه للتوّ بنخب مشهديّ. كان يقدّم يدَ ابنته آدما إلى أديب بارود الذي سيصير ابنَه منذ ذلك اليوم.

ظهرَ جميل في الغرفة في لحظة تبادل الأنخاب بين أفراد عائلتي جعفر وبارود المجتمعين في مناسبة احتفالية مثيرة وغير متوقعة. تمّ تقديمه إلى جميلة وشقيقتها التي كانت على وشك أن تصبح أختَ زوجته أيضاً وزوجها ورانولفو بيريرا واخوة أديب وزوجاتهنّ. كان يعرفُ أديباً من البار لكنه لم يتخيّل أبداً أن أي علاقة يمكن أن تنشأ بينه وبين آدما. الملعونان!

تأمّل العانسَ المشؤومة بشيء من الحياد ولم يصدّق أنه قد قبلَ - أو رغبَ! - الزواج بها. كان منظرها منفّراً وهي تمسك بذراع زوجها بخنوع وتقهقه بغنج ودلال. ثم توصّل إلى قناعة مفادها أنه ما من مواطن عادي يمكن له قبول مثل هذا الاتفاق المشؤوم مقابل مملكة **ألف ليلة وليلة**. كان ذلك الشاب أديب بارود، فضلاً عن وضاعته وجشعه، شخصاً منحطاً. مع ذلك، وقبل أقلّ من ساعة، كان جميل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصعد الدرجَ إلى الجناح السكنيّ لتقديم طلب مباشر ومماثل للطلب الذي كان قد قدّمه رضوان مراد بطريقة شعرية نيابة عن نادل البار السابق. إنه الجشع الذي يشي بالانحطاط أيضاً. منحط؟ لا! فيه مَسٌّ من الشيطان، مسحور، أعمى، أصمّ.

رفع كأسَه ليشربَ نخباً مع سانتي بصحّة العروسين. كان مالكُ البار، الذي ترافقه زوجته لينا التي تتمتع بردفين مثيرين، يتحسّر على خسارة هذا العامل النشيط الكتوم في سرقاته. تنبّأ له بمستقبل واعد في عمله الجديد. كانت المشروبات جيدة ومجانية والرفقة ممتعة. انغمس جميل بشارة في هذا الفرح الجماعي. ومع أن قدومَه لم يكن متوقعاً في تلك الساعة، فإنه كان المساهمَ الأكبر في الأحاديث الدائرة.

بينما كان يثرثر مع سميرة بالقرب من إحدى النوافذ، انفجر في نوبة من الضحك المفاجئ.

"على ماذا تضحك بهذه الطريقة الهستيرية؟" أرادت المرأة اللعوب أن تعرف.

"إنني أضحك على الشيطان"، أجاب جميل بشارة وقد أصابَ جوابُه عينَ الحقيقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

19

خرج جميل بشارة من هذه المعمعة سليماً مُعافى. لم يكن ما حلمَ به هناك في إيتاغواسو النائية من أرباح وثروة وسلطنَة سوى أحلام يقظة. كان من الصعب تحقيقها. وربما كانت ستتلاشى كلها مخلفة وراءها الالتزامات وأعباء الزواج. الزواج: يا ويليي! اللعنة!

حافظ على صداقته مع إبراهيم الذي كان رفيقاً مسلياً في ليالي الشرب الصاخبة كما استمرّ في مغازلاته العابرة مع سميرة. كان يذهب لزيارتها في محطة لارغو كلما أتى إلى إيتابونا. كانا يثرثران حول مسائلَ تافهة ويتبادلان الابتسامات والتلميحات والوعود الغامضة والضغط الرقيق على الأيادي عند المصافحة. كانا يتلامسان بشكل عرَضي بين فينة وأخرى وكان يسترق النظر إلى رقبتها وصدرها لكن الأمور لم تتجاوز هذا الحدّ. كان يتمتع بمكافآته في أحلامه هناك في إيتاغواسو حيث كانت سميرة تستلقي بالقربِ منه في ليالي أحلامه الخلاعية، بنهديها الممتلئين وبطنها العريض ودغلها الصغير. لقد أنقذه الله من آدما وقدر فظيع من الشقاء والكدّ القاتل في العمل لإعالة أفراد عائلة جعفر الكسالى. وفي تعويض صغير عن هذا كله وجد شريكة لعوبة يستطيع أن يغازلها متى يشاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما اتضحت الأمور أخيراً بقي لغزٌ واحدٌ عصيٌّ على الفهم، لغز يستجدي الحلَّ بعد أن أثار الكثير من النقاش والجدل. لم يكن الشاب أديب بارود الذي يدير المخزن قد حوّله بعد إلى ذلك السوق الكبير الذي حلمَ ووعدَ به - هو وجميل من قبله - لكنه نظم أمورَه المالية وأعاد إليه سمعته السابقة واستردَّ زبائنَه. لم تكن النتائج خارقة لكنها كانت مقبولة على الأقل. وكما بدا للجميع، لم يكن أديب يتذمّر أبداً بل كان مبتسماً على الدوام ولطيفاً خلف المكتب واجتماعياً ومهذباً مع الجميع. فقد تعلّم هذه المهارات كلها أثناء عمله في البار. كما كان محبوباً من جميع النساء اللواتي يتردّدن على المخزن.

رغم صغر سنه، تولّى المسؤولية الكاملة عن المخزن بكفاءة عالية دفعت أقرباءه إلى احترامه وتقديره. وفوق هذا كله كان سعيداً في زواجه. إذ كان يبدو زوجاً مخلصاً راضياً في علاقته الجسدية مع زوجته. لم يكن مخلصاً في زواجه كما كان إبراهيم في حياة سلوى، فقد كان يرافق حماهُ في مغامراته الليلية في أحايينَ كثيرة ويعودان في أي وقت يريدان. في البداية، حاولت آدما الارتكاس إلى عادتها القديمة. فقد انتظرت عودته والغضب يتآكلها والسمّ يسري في عروقها، حيث تحوّلت إلى أفعى سامة واستقبلته بالعصي والحجارة والصراخ والبكاء في احتفال صاخب مروّع. ولكي يستهلّ حديثه معها، سارع أديب إلى صفعها بقوة ثم أشبعها ضرباً بطريقة وحشية جعلتها عبرة لمن يعتبر. وبعد ذلك امتطاها بقوة وشغف ثم تركها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هادئة وراضية تهرّ مثل قطة سعيدة. وكان يعيد الكرّة كلما دعت الضرورة ومن دون أي سبب واضح في بعض الأحيان. هكذا، روَّضها، بالضرب والرّبت، رغم انتقادات الرجال وبعض النساء اللواتي كنّ يتمسّكن بالعرف السائد الذي يُملي على الرجل مضاجعة زوجته بطريقة محترمة لأداء واجب مقدّس يتمثل في زرع الأطفال في أحشائها. أما للبذاءات والممارسات القذرة، فهناك العاهرات. لقد عزا الناس إخلاصَ إبراهيم إلى جمال سلوى الفريد وجسدها المكوَّر المثير ووجهها الفاتن وعينيها الساحرتين. ولكن كيف يمكن تفسير التزام أديب زوجتَه؟ فبعد أن كان شاباً قوياً ضارياً تشتهيه العاهرات والجواري تقوقعَ وانزوى في عالمه الجديد. ترى، ما هي الفنون والمهارات الكفيلة بإبقائه في البيت ليلاً، التي كانت تلجأ إليها آدما، المرأة الحديدة، سمكة القدّ الجافة، طاولة الكوي؟

عندما استكشف أديب جسدَها بيده في يوم سعار الحمير ذاك أدرك أنها شخصٌ آخر. كانت تتمتع بنهدين قاسيين مثيرين. ولكن هل يكفي نهدان مثيران للتعويض عن ذلك القبح كله؟ أو هل كانت آدما، ربما، كما ارتأى البعض في أتون النقاشات الحامية، واحدة من مخلوقات الله المختارة التي تتمتع بنعمة الفرج الضيق الذي يشتهي الرجال زرع قضبانهم فيه؟

بقيَ اللغز مجهولاً للجميع. لكن رضوان مراد، وهو يسترجع الحدودَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقيقية والسحرية لقصة مراسم زواج آدما، لفت انتباه المستمعين إلى حقيقة أن الله برازيلي. كان رضوان المسؤول عن مستقبل جميل بشارة قد تحكّمَ، بالكفاءة نفسها، بمصير أديب بارود، إذ إنه يحب ابنيه الاثنين اللذين نشآ على حبّ التجارة والمال واحترام قوانين باهيّا الجنوبية. فبما أن الله قد استغلَّ فتى البار لمنع جميل من تفادي قدَره، فإن يَهوَه، ربَّ الكاثوليك الموارنة، قد فعل الشيء نفسه. لم يشأ أن يترك أديباً مهزوماً ومرمياً في كومة من الخراء. لم ترِث آدما وجهَ سلوى الفاتن ولا جسدَها المثير لكن الله قد عوّضها عن هذا كله بأن منحها ذلك الجزء الأهمَّ من الميراث، الجزء الأساسي: ذلك السحر الغامض الفريد الذي يجعل بعض النساء النادرات، سواء كنّ جميلات أم قبيحات، مثيرات إلى حدّ لا يُقاوَم. سلوى أم آدما، لا يهم... معجزة أقل أو معجزة أكثر، كانت المعجزات تحدث في رمشة عين في تلك الأزمنة الجميلة التي اكتشف فيها الأتراك أميركا.

باهيّا، يوليو، باريس، أكتوبر، 1991

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملحق

عندما كان جورجي يكتب أحد المقاطع من رواية *Showdown* [المواجهة] في البرتغال عن زواج فضّول عبد الله، أحد أبطال الرواية، سحرني المقطع. كان يتضمن لحظات تشي بسخرية رائعة لكنه كان مؤثراً في الوقت نفسه. وفي أحد الأيام، رأيتُ كومة كبيرة من الورق المطبوع في سلة المهملات، وعندما تفحّصتُها اكتشفت أنه الفصل الذي يحكي عن حفلة الزواج. جورجي، هل سترمي هذه الأوراق؟ قال لي إن الفصل طويلٌ جداً وإنه يكاد يكون رواية أخرى داخل الرواية الأولى وإن أفضل مكان له هو سلة المهملات. لم أفلح في إقناعه بالاحتفاظ بالفصل المطبوع لكنني وضعتُ النسخة الأصلية في مغلّف وخبأّته. وبعد ذلك بسنوات، في احتفالات الذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أميركا، طلب مني جورجي أن أعطيه الفصلَ الذي كان يعرف أنني احتفظتُ به واستخدمه في كتابة هذه الرواية.

زيليا غاتاي أمادو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول الكتاب

نبذة

«هاجسهم النساء والحب في بلاد يتحارب رجالها ويتقاتلون، لكنها تفتح لهم جميعاً أبواب الطموح والحلم. جميل بشارة الحالم بالثروة والحب، رضوان مراد الفيلسوف الغاوي والمتحدث اللبق، إبراهيم جعفر الأرمل الحزين المتصابي، ليس من بينهم تركي حقيقي واحد، لكن دأب أهل البلد على تسمية المهاجرين من أراضي السلطنة العثمانية بالأتراك. إنها بداية القرن العشرين في مقاطعة باهيا في البرازيل...»

قيل في الكتاب

«ساحرة... تحفة في الفن السردي» جوزيه ساراماغو

«الكاتب البرازيلي الأكثر مبيعاً» Guardian

عن المؤلف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جورجي أمادو (1912-2001) من أهم كتّاب الأدب البرازيلي.
ترجمت أعماله إلى حوالى خمسين لغة.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

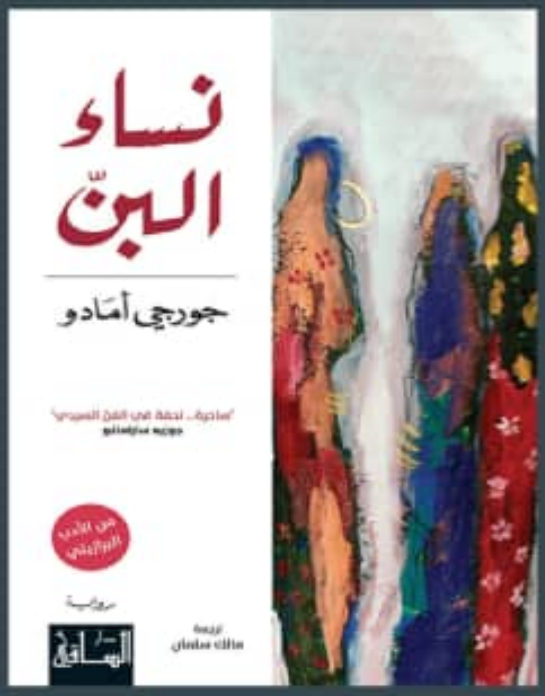

تم الرفع بواسطة: Akko (:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner